بين العقل والإيمان

الجزء الثالث

كيف نفهم طبيعة الله؟

بقلم د. هيرمان بافينك

ترجمة
د. عبد المسيح أسطفانوس

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو الكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

المحتويات

تقديم

الفصل الأول: وسيط العهد

الفصل الثاني: طبيعتا المسيح الإلهية والبشرية

الفصل الثالث: عمل المسيح في اتضاعه

الفصل الرابع: عمل المسيح في ارتفاعه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تقديم

عزيزي القارئ:

منذ أن ظهر كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عام ١٨٨٨، والذي أعيد طبعه كما هو بعنوان "علم اللاهوت النظامي" في السبعينات، لم يظهر في العربية حتى اليوم كتاب آخر يصلح مرجعاً لاهوتياً لكل من يرغب في دراسة علم اللاهوت من زاوية انجيلية. لقد ظهرت فعلاً بعض الكتابات، لكننا لا يمكن أن نعتبر أيّاً منها مرجعاً لاهوتياً.

وقد خدم كتاب "نظام التعليم في علم اللاهوت القويم" عدة أجيال وما زالت أجزاء كبيرة منه تصلح مرجعاً لاهوتياً مفيداً. إلا أن من يتصفحه يلمح على الفور أنه يقرأ كتاباً مصوغاً في إطار فكري يعود بالقارئ على الفور أنه يقرأ كتاباً مصوغاً في إطار فكري يعود بالقارئ إلى قرن مضى، سواء من حيث المفردات أو القالب الفكري أو حتى المضمون.

لذلك كانت الحاجة ملحة لأن يتوفر للقارئ العربي ولكل من يرغب في الاستزادة من العلوم اللاهوتية، كتاب يتحدث بلغة العصر في صياغة حديثة ويعني بالموضوعات المعاصرة.

ظهر الكتاب الذي بين يديك باللغة الهولندية أوّلاً عام ١٩٠٩ بعنوان "أعمال الله الرائعة" ثم ترجم إلى الإنجليزية بعنوان "إيماننا المعقول" ونشر عام ١٩٥٦ ثم أعيد طبعه عدّة مرات. ورغم أن هذا الكتاب لا يتفاعل مع مؤثرات فكرية كثيرة ظهرت بعد كتابته، فهو يقدّم لنا صياغة لاهوتية أقرب إلى العصر الذي نعيش فيه، والجو الفكري الذي يحيط بنا.

ومؤلف الكتاب عالم لاهوت هولندي مرقوق قام بتدريس مادة علم اللاهوت خلاصتها في الكتاب الذي بين يديك. ويلاحظ القارئ أن الكتاب يشمل دراسة ملتزمة للكتاب المقدس، ولذلك فهو غني بالإشارة إلى الآيات الكتابية التي نرجو أن يلاحظ أنها ليست دائماً بنصها الحرفي كما هو، لأن الاقتباسات في كثير من الحيان اقتباسات تفسيرية.

نأمل أن تكون هذه السلسلة سبب بركة كبيرة لمجد الله ولخير الإنسانية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الأول

وسيط العهد

قصدُ الفداء ليس مشروعاً بشرياً يتعلق تنفيذه بالظروف غير المتوقعة، ولذلك هو بعيد عن الإتمام إنه قصد جرى بل إنها خطة قد نفذت بتمام اليقين، لأنه قرار اتخذته مشيئة الله المتصفة بالنعمة والقدرة وهي ثابتة منذ الأزل، فهكذا لا بد أن تتحقق في الزمن. وعليه، فإن كل ما ينبغي أن يبحث فيه تعليم العقيدة إنما هو الطريقة التي بها تنفذ وتحقق مشورة الله هذه غير المتغيرة والمتعلقة بخلاص البشر الذين أوجدهم تعالى. ولما كانت تلك المشورة تتعلق أساساً بثلاث قضايا رئيسية – ألا وهي الوسيط الذي به ينبغي الحصول على الخلاص، والروح القدس الذي به يتم تنفيذ الخطة، والبشر الذين ينالون الخلاص – فإن تعليم الإيمان المسيحي بهذا الشأن لا بد أن يتناول فيما يلي هذه القضايا الثلاث.

فينبغي أن يتناول التعليم أولاً شخص المسيح الذي أنجز الخلاص بآلامه وموته. وثانياً، ينبغي أن يوضح الطريقة التي بها يجعل الروح القدس المختارين يشتركون في المسيح وفي التمتع بفضائله. وثالثاً، ينبغي الاهتمام بالبشر الذين صار لهم نصيب في الخلاص الذي أكمله المسيح، مع الأخذ في الاعتبار أن الكنيسة جسد المسيح.

ولا بد في الختام أن يبلغ التعليم ذروته في التطرق إلى إتمام الخلاص الذي ينتظره المؤمنون في ما بعد. وسيثبت البحث بجملته أن قصد الفداء، بكل أجزاءه، محكم الترتيب ومضمون التنفيذ، ففيه تُعلن نعمة الله التي لا يعبر عنها، وحكمته المتنوعة، وقدرته الخارقة.

في شخص المسيح تظهر في التو وبكل وضوح هذه السجايا السامية كلها،و إن كان صحيحا أن الإيمان بوسيط لا يقتصر على المسيحية. ذلك أن جميع البشر والأمم يعيشون ولديهم شعور لا ينحصر فقط في حقيقة كونهم لا يملكون نصيبا في الخلاص، بل يتعدى ذلك إلى امتلاكهم اقتناعاً قلبياً راسخاً بأن هذا الخلاص يجب أن يدلهم عليه ويعطيهم إياه أشخاصا مخصوصون، بطريقة ما. إذ تشيع عموما الفكرة التي مفادها أنَ الإنسان على حاله لا يستطيع أن يقترب إلى الله ولا يستطيع أن يقيم في حضرته؛ فهو يحتاج إلى وسيط يفتح له الطريق إلى الله. ولذلك يوجد في جميع الديانات وسطاء يُعرفون البشر بالإعلانات الإلهية من جهة، ويحملون لهم صلواتهم وتقدماتهم إلى الإله من جهة ثانية.

و يكون هؤلاء الوسطاء أحيانا من الآلهة الأدنى مقاماً، أو من الأرواح، لكنهم أيضا غالباً ما يكونون أناساً وهبوا معرفة فائقة وقوة خارقة وفهما ممتازا بحيث تحيط بهم هالة خاصة من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

القداسة. لهؤلاء الوسطاء عند الأمم مقام هام في الحياة الدينية، وهم أهل مشورة في جميع المناسبات المهمة في الحياة الخاصة والشؤون العامة، كالكوارث والحروب والأمراض والمشاريع وما شابه. وسواء كانوا عرافين أو سحرة، أم قديسين أو كهنة، فهم يدلون الناس على الطريق التي يزعمون أن عليهم سلوكها لكي ينعموا برضى الإله؛ غير أنهم- هم أنفسهم- ليسوا على تلك الصورة. فإن أديان الأمم ليست متعلقة بأشخاص وسطائها. وهذا ينطبق حتى على أديان أسسها أشخاص معينون. ففي الواقع أن بوذا وكونفوشيوس وزرادشت هم أول المعترفين بالأديان التي أسسها كل منهم، إلا أن مضمون أديانهم ليس أشخاصهم. فارتباط كل منهم بدينه هو- بمعنى ما- عرضي وخارجي. حتى إن أديانهم يمكن إن تظل على ما هي عليه ولو نسيت أسماؤهم أو بدلت بشخصياتهم شخصيات غيرهم.

بيد أن الحال في المسيحية ليست البتة على هذا المنوال. صحيح أن قوما ذهبوا إلى أن المسيح أيضا لم يقصد قط أن يكون هو الوسيط الوحيد، وأنه يقبل بسرور أن ينسى اسمه لو أن مبدأه وروحه فقط استمرا في الكنيسة، على أن آخرين ممن لا صلة لهم بالمسيحية هاجموا بنزاهة هذا الزعم ودحضوه. فإن المسيحية تنفرد بارتباطها الخاص بشخص المسيح على نحو يختلف كثيرا عن ارتباط سائر الأديان الأخرى بأشخاص مؤسسيها. ذلك أن المسيح لم يكن هو أول معترف بالدين الذي سمي باسمه. إنه لم يكن المسيحي الأول والأهم. بل إنه يشغل في المسيحية مكانة فريدة كاملة. فهو ليس "مؤسس" المسيحية بمعنى الكلمة العادي، بل إنما هو المسيح، أي الشخص الذي أرسله الآب، والذي أسس ملكوته على الأرض، وهو الآن ينشره ويحفظه إلى آخر الدهور. إن المسيح نفسه هو المسيحية. فهو يقف لا خارجها، بل في قلبها. ولولا اسمه وشخصه وعمله، لما كان هنالك شيء يدعى "المسيحية". بكلمة أخرى، ليس المسيح هو من يدلنا على طريق المسيحية، بل إنه في نفس الطريق. إنه الوسيط الحقيقي الكامل والوحيد بين الله والناس. فما تطلعت إليه مختلف الأديان وترجته في اعتقادها بوسيط، إنما هو متحقق في المسيح فعلاً وتماماً.

****

لكي نقدر بالتمام مكانة المسيح الفريدة هذه حق قدرها، ينبغي لنا أن ننطلق من الفكرة التي يبينها الكتاب المقدس والتي تفيدنا أن المسيح، على خلافنا، لم يبدأ وجوده عند الحبل به وولادته، وأنه موجود قبل ذلك منذ أجيال لا حصر لها – بل انه بالحقيقة كائن أزلاً بوصفه ابن الآب الوحيد والحبيب. وقد سبق العهد القديم فسمى المسيح الآتي " أبا الأبدية" الذي هو آب ابدي لشعبه (اشعياء٩: ٦)، وقال أن مخارجه (أصله ومصدره) هي منذ القديم، منذ أيام الأزل (ميخاه٥: ٢). ثم يوالي العهد الجديد الفكرة عينها، لكنه أيضا يقدم تعابير أوضح عن أزلية المسيح. فذلك متضمن في جميع تلك الفصول الكتابية التي تعرض كامل عمل المسيح على الأرض باعتباره إتماما لعمل أوكله الله إليه من قبل. صحيح أنه قيل عن يوحنا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المعمدان أيضا أنه لا بد أن يأتي – وقد أتى فعلاً – كإيليا ثان (مرقس٩:١١-١٣ ويوحنا ١:٧) غير أن في التشديد على حقيقة كون المسيح قد جاء إلى العالم لإتمام عمله الإلهي، وفي كثرة المرات التي يشار إلى هذه الحقيقة، دليل على أن هذا التعبير مستعمل حقا بمعنى خاص.

فنحن لا نقرأ فقط بمعنى عام أنه خرج من لدن الآب لكي يكرز (مر١:٣٨)، وأنه أتى لكي يدعو الخطاة إلى التوبة ويقدم نفسه فدية عن كثيرين (مر٢:١٧؛١٠:٤٥). بل يضاف شيء آخر أيضا إذ يقال صراحة إنه مرسل لينادي بالبشارة (لوقا ٤:٤٣)، وإن الآب هو الذي أرسله (متى ١٠:٤٠ ؛يوحنا ٥:٢٤ وما يليها)، وإنه قد خرج من قبل الآب وجاء باسمه (يوحنا ٥:٤٣ ؛٨:٤٢، ومواضع أخرى)، وغنه نزل من السماء وجاء إلى العالم. وهكذا يعرف الرب يسوع نفسه أنه الابن الوحيد الحبيب عند الآب والذي أرسل إلى الكرم بعد سائر العبيد (مرقس ٦:١٢). ومن كان ابن داود سبق أن كان رب داود (مر ١٢:٣٧)، وهو الكائن قبل إبراهيم (يوحنا ٨:٥٨)، وقد كان له عند الرب مجد قبل تكوين العالم (يو ١٧:٥ ٢٤).

ثم أن شهادة الرسل تكشف النقاب على نحو أكثر تحديدا عن هذا الوعي الذاتي لدى المسيح بخصوص وجوده الأزلي. فالمسيح هو الكلمة الأزلي الذي كان عند الآب في البدء، والذي كان هو الله، وقد صار جسداً (يوحنا١: ١، ١٤). إنه بهاء مجد الله، ورسم جوهره، وله مقام أسمى جدا من الملائكة. ليس ذلك وحسب، بل له أيضا أن يطالب الملائكة بالسجود له، وهو الإله الأزلي والملك السرمدي الذي هو دائما وسنوه لن تفنى (عبرانين١:٣ -١٣). إنه الغني (٢ كورنثوس٨:٩) الكائن بذاته في صورة الله بحيث كان مساوياً للآب لا في الجوهر وحده بل أيضا في المقام والمجد. وهو لم يعتبر هذه المساواة لله غنيمة ينبغي التمسك بها واستخدامها لنفسه (فيلبي ٢:٦)، بل أخلى نفسه آخذا هيئة البشر وصورة العبد (في٨،٢:٧)، ولذلك رفع إلى مقامه الأعلى بوصفه الرب من السماء، وهكذا كان نقيضا لآدم الإنسان الترابي من الأرض (١ كورنثوس١٥:٤٧). وبعبارة واحدة، فإن المسيح – مثله مثل الآب تماماً- هو الألف والياء، الأول والآخر البداية والنهاية (رؤيا ١٧،١:١١؛ ٢٢:١٣).

من هنا أن عمل ابن الله المتجسد لم يبدأ فقط عند ظهوره على الأرض، بل يرقى أيضا رجوعا إلى الخلق. فبالكلمة صنع كل شيء غير استثناء (يوحنا١:٣؛ عبرانيين١:٢، ١٠). إنه البكر والرأس ومبدأ كل خليقة (كولوسي١:١٥؛ رؤ٣:١٤). هو كائن قبل كل شيء (كو١:١٧). وليس فقط أن الخلائق كلها خلقت بيده، بل فيه تقوم كلها أيضا (كو١:١٦، ١٧) وهي من لحظة إلى لحظة محمولة بكلمة قدرته (عبرانيين١:٣). كما أنها أيضا له قد خلقت (كولوسي١:١٦)، لأن الله جعله، وهو الابن، وارثا لكل شيء (عبرانيين ١: ٢، رومية٨:

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

١٧). ولذا فإن للابن منذ البداية علاقة وثيقة بالعالم، وعلاقة أوثق بالبشر. إذ فيه كانت الحياة، الحياة الكاملة الغنيّة غير المعرضة للفناء والتي هي مصدر كل حياة في العالم. هذه الحياة كانت نوراً للناس الذين خُلقوا على صورة الله ولهم طبيعة أدبية عاقلة. مصدراً للحق الإلهي الذي ينبغي للناس أن يعرفوه ويعتبروه (يوحنا ١:٤). حقاً أنّ الإنسان صار ظلمةً في ما بعد من جرَّاء الخطيّة، إلا أنّ نور العالم رغم ذلك قد أضاء في تلك الظلمة (يو ١:٥)، وقد أنار كل إنسان جاء إلى العالم (يو ١:٩)، لأن الكلمة كان في العالم ومكث فيه، وظلَّ يعمل في العالم، وإن كان العالم لم يعرفه (يو ١:١٠).

إذاً المسيح الذي ظهر في العالم في ملء الزمان – بحسب ما تخبرنا عنه الكلمة المقدّسة – ليس هو مجرد إنسان كغيره من الناس، ولا مؤسس ديانة، ولا مبشراً بناموس خُلقي جديد. إنّهُ صاحب مقام فريد. إذ أنه كائن أزلاً بصفته ابن الآب الوحيد وهو خالق كل الأشياء ومدبرها وضابطها. وفيه كانت حياة الناس ونورهم. ولما ظهر في العالم، لم يدخله كغريب، بل جاء بوصفه ربّه الذي له علاقة به. فالفداء، أو الخلق من جديد، مرتبط بالخلق؛ والنعمة مرتبطة بالخليقة؛ وعمل الابن بعمل الآب. ذلك أن الفداء مبنيّ على أساسات أرسيت في الخلق.

****

و تتضح لنا مكانة المسيح الفريدة، على نحو أكثر وضوحاً، إذا نحن تأملناها في ارتباطها بشعب العهد القديم. فقد كان الكلمة (اللوغوس)، بشكل ما، ما كثاً وعاملاً في العالم كله وفي جميع البشر. ولكن على الرغم من أن النور كان يضيء في الظلمة، فإن الظلمة لم تدركه؛ ومع أن الكلمة كان في العالم، فإن العالم لم يعرفه (يوحنا ١:٥،١٠). غير أنّ الكلمة كانت له علاقة أوثق بالشعب القديم، إذ إن تلك الأمة وحدها، بين جميع الأمم، كانت هي الأمة التي حُسبت ميراثاً له، ولذلك تدعى في يوحنا ١:١١ خاصة الكلمة الذي كان في البدء عند الله والذي كان هو الله. فإسرائيل كانت خاصته وقد كان هو بينها كما لم يكن بين البشر الآخرين. وهو جاء إلى تلك الأمة عمداً وبعد قرون من التحضير. والمسيح، بحسب الجسد، هو من نسل الآباء رومية ٩:٥). وصحيح أن "خاصته " قد رفضته.، غير أن مجيئه لم يكن عبثاً، لأن جميع الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (يوحنا ١:١٢) – علماً بأننا نقرأ عن العالم أنه لم يعرفه، ولكن عن اليهود تُقال عبارة أقسى، ألا وهي أنهم لم يقبلوه، أي احتقروه ورفضوه.

و عندما نقرأ في يوحنا ١:١١ أن الكلمة صد جاء إلى خاصته فلا شك في أن الإشارة هي إلى التجسد، إلى مجيء المسيح في الجسد. غير أن العبارة أيضاً تعني ضمناً أن علاقة الملكية الموجودة بين الكلمة وإسرائيل لم تبرز إلى حيز الوجود أولاً بالتجسد وبعده، بل هي

 All rights reserved © 2008-2018

بالأحرى حاصلة قبل ذلك بزمن طويل. فقد كان الشعب خاصته وهو بالتالي جاء إلى خاصته في ملء الزمان. ولحظة قَبِلَ يهوه شعب إسرائيل خاصة له. لحظتئذٍ دخل الشعب أيضاً في علاقة خاصة بالكلمة (اللوجوس)، وهو نفسه في نهاية المطاف الرب الذي التمس الشعب وجهه، وملاك العهد المزمع أن يأتي بغتة إلى هيكله (ملاخي ٣:١) والذي سكن بين شعبه وعمل وسطهم منذ القديم. ونقرأ في مواضع عديدة من العهد القديم عن ملاك العهد أو ملاك الرب. فعلى حدٍّ ما أشرنا إليه فيما يتعلق بعقيدة الثالوث، كان الرب بواسطة ذلك الملاك يُعلن ذاته لشعبه بطريقة خاصة. ومع أن هذا الملاك مميز من الرب، فإنه رغم ذلك موحد به إلى أبعد حد بحيث يمكن أن يعزى إليه عين ما يعزى إلى الله نفسه من اسماء ومزايا وأعمال وكرامة. فهذا الملاك هو إله بيت إيل (تكوين ٣١:١٣)، وإله الآباء (خروج ٣:٢،٦)، من وعد هاجر بتكثير نسلها كثيراً (تكوين ١٦:١٠؛ ٢١:١٨)، واقتاد الآباء وأنقذهم (تك ٤٨:١٥،١٦)، واقتاد الآباء وأنقذهم ملاك الحضرة الإلهية إلى الشعب توكيداً بأن الرب نفسه في وسطهم بوصفه إله الفداء والخلاص (إشعياء ٦٣:٩). وقد كان ظهور هذا الملاك إعداداً وتقديماً لإعلان الله الشخصي الكامل الذي سوف يحصل في ملء الزمان بالتجسد. فإن تدبير العهد القديم بكامله كان افتراباً متزايداً على الدوام من قبل الله نحو شعبه، ولسوف يبلغ غايته بسُكنى المسيح إلى الأبد في وسطهم (خر ٢٩:٤٣- ٤٦).

إن هذا التعليم المختص بطبيعة وعمل الكلمة، قبل ظهوره في المسيح بالجسد، لهو أمر بالغ الأهمية في سبيل الإتيان بتفسير سليم لتاريخ البشرية وامتلاك نظرة صحيحة في ما يتعلق بالشعب العبراني والديانة اليهودية. إذ يُتاح لنا بذلك أن نقر بكل ما هو حق وخير وجميل مما يمكن أن نلقاه بعد في العالم الوثني، مع التشديد في الوقت عينه على الإعلان الخاص الذي أعطاه الله لشعب العهد القديم. فبينما كلمة الله، وحكمته، فعال في العالم أجمع، أظهر نفسه لبني إسرائيل بصفة ملاك العهد مثل إعلان اسم الرب. والواقع أن عهد النعمة هو واحد في كلا العهدين، القديم والجديد. فإن مؤمني العهد القديم لم ينالوا الخلاص بطريقة أخرى غير التي بها خلصنا نحن، ولا نحن مخلَّصُون بطريقة أخرى غير التي بها خُلِّصوا هم. إنه الإيمان الواحد بالوعد، والاتكال عينه على نعمة الله، ما يجعل الخلاص في متناول البشر أنذاك والآن. وقد أُعطى المؤمنون آنذاك، كما نعطى نحن الآن، البركات نفسها – من غفران وتجديد، وولادة ثانية وحياة أبدية. فالجميع سائرون في الطريق الواحد بعينه، وإن يكن النور الذي يهدي المؤمنين في العهد الجديد أكثر إشراقاً وبهاءً من نور مؤمني العهد القديم.

على أن هذا يقترن بنقطة تفصيلية مهمة أخرى، فبولس يقول عن أهل أفسس إنهم سابقاً، لمّا كانوا ما يزالون يعيشون كالوثنيين، كانوا بلا مسيح، غرباء عن عهود الموعد، لا رجاء لهم، وبلا إله في العالم (أفسس ٢:١١،١٢). وبعبارة أخرى، فإنهم عاشوا في حالة مختلفة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

تماماً عن حالة اليهود قبل مجيء المسيح. إذ لم يكن لديهم وعد من الله يتمسكون به. وقد عاشوا بلا رجاء في العالم، ولم يكن عندهم إله يعرفونه ويخدمونه من القلب. بالطبع، لا يعني الرسول هنا أن الوثنيين لم يؤمنوا بآلهة ما، إذ يقول في موضع آخر عن الأثينويين إنهم من كل وجه متدينون كثيراً، ويتحدّ عن إعلان سمح الله بأن يأتيهم جزئياً (أعمال ١٧:٢٤ وما يليها ؛ رومية ١:١٩ وما يليها) ولكنهم مع أنهم عرفوا الله، لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم وعبدوا آلهة ليست بالطبيعة آلهة (رومية ١:٢١ وما يليها ؛ غلاطية ٤:٨)كما أن بولس لا ينكر أيضاً أن الوثنيين يعللون أنفسهم بمختلف الآمال المستقبلية قبل القبر وبعده، غير أنه يعبر عن فكرة كون هذه الآمال كلها، شأنها شأن الآلهة التي تعبدوا لها، باطلة جميعاً، وذلك لسبب افتقار أساسها إلى وعد ثابت قاطع من الله بالمسيح.

ولكن حال شعب العهد القديم كانت بخلاف ذلك. فإن الله استأمن هذا الشعب على أقواله تعالى (رو ٣:٢). وقد تبناهم كأولاد له، وحل بمجده في وسطهم، وأعطاهم تدابير متتالية متعلقة بالعهد، على أشكال منها الشريعة، والعبادة المرتبة، وخصوصاً تلك المواعيد المنصبة على مجيء المسيا والمشيرة إليه طالعاً من بني إسرائيل حسب الجسد (رو ٩:٤،٥). لكن المسيح، وإن كان من الآباء من حيث الجسد، هو أكثر من مجرد إنسان إنه الله، الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد(رو ٩:٥)، وهو كان موجوداً وفعالاً أيضاً في أزمنة العهد القديم. فالمسيحيون في أفسس. لما كانزا وثنيين، كانوا عائشين بلا مسيح؛ غير أن الشعب الإسرائيلي القديم، في المقابل، كان مرتبطاً بالمسيح، أعني المسيح الموعود، والذي كان موجوداً أيضاً آنذاك وناشطاً باعتباره الوسيط. وقد كان عاملاً في القيام بعمله الخاص. لكنه كان مهتماً أيضاً في هذا العمل: أنه – بالكلمة والنبوءة والتاريخ – مهد السبيل لمجيئه الشخصي في الجسد، وألقي على جميع الشعب ظِلّ توقع قدومه. ذلك هو ظِلّ مجموع الخيرات العتيدة التي سوف ينجزها ويجزلها هو شخصياً في ملء الزمان.

ويتحدث الرسول بطرس بصراحة ووضوح، على هذه الطريقة عينها في الإصحاح الأول من رسالته الأولى، فحينما يتناول الرسول هناك موضوع الخلاص العظيم الذي يشترك فيه المؤمنون الآن مبدئياً، والذي يرجون اكتماله في المستقبل بكل يقين، يبين مجد ذلك الخلاص بالإشارة على الخصوص إلى أن أنبياء العهد القديم اتخذوه غرضاً للبحث والتأمل. والحاصل أن السمة المشتركة التي كانت للأنبياء جميعاً في أنهم تنبأوا عن النعمة التي تمنح على المؤمنين الآن في زمن العهد الجديد. وقد تلقى الأنبياء هذه المعرفة بالإعلان، ولكن هذا الإعلان لم يجعلهم خاملين، بل إنه بالأحرى دفعهم شخصياً لأن يكونوا عاملين، فقد حثهم الإعلان ودفعهم إلى الدرس والبحث بكل اجتهاد، لا على طريقة الفلاسفة الذين حاولوا بعقولهم فهم أسرار الخليقة، بل باعتبارهم أناس الله القديسين الذين اتخذوا الإعلان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الخاص المتعلق بالخلاص العتيد على يد المسيح موضوعاً لأبحاثهم. ولم يقادوا في دراستهم هذه بوحي أفكارهم الخاصة، بل سمحوا لروح الله بأن يقودهم. أما المسألة التي نظروا فيها وبحثوا فهي: "أي وقت، أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح، والأمجاد التي بعدها؟" (١ بطرس ١:١٠،١١). فالمسيح نفسه هو الذي أعطى أنبياء العهد القديم روحه، فأعلن بذلك الروح مجيئه وأنبأ بعمله الكفاري. وشهادة يسوع في قلوب خاصته عما يتعلق بشخصه إنما هي بينة على حقيقة امتلاكهم روح النبوة (رؤيا ١٩:١٠).

بشهادة هذا الروح بلغ شعب العهد القديم تلك الآمال المجيدة والغنية التي يلخصها عنوان "الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم".

****

تدرج الانتظارات المستقبلية لملكوت الله ضمن مجموعتين. وتنتمي إلى المجموعة الأولى تلك الآمال التي لها عموماً علاقة بمستقبل ملكوت الله. لهذه التطلعات أيضاً أهمية كبيرة، ولها أوثق علاقة ممكنة بعهد النعمة، إذ يتضمن ذلك الوعد يقيناً أن الله سوف يكون إلهاً لشعبه ولنسلهم ولذا فهو ذو علاقة بالمستقبل أيضاً، لا بالماضي وحده. صحيح أن ذلك الشعب يذنب المرة تلو المرة بالعصيان والارتداد ونقض العهد أمام وجه الرب. ولكن لأن العهد هو بالتحديد عهد النعمة، فإن التمرد وعدم الأمانة من قبل الشعب لا يمكن أن يفعلا شيئاً يبطل أمانة الله. ذلك أن عهد النعمة هو بطبيعة حاله عهد ابدي يتجدد من جيل إلى جيل. فعندما لا يسير الشعب في طريق العهد، عندئذ يمكن أن يتخلى الله عنهم إلى حين ويعرضهم للتأديب والعقاب أو السبي، ولكنه لا يمكن أن ينقض عهده، لأن عهد نهم غير مبني على تصرف البشر، بل هو مؤسس فقط على مراحم الله. فلا يمكن أن يبطل الله عهده، لأن ذلك يهين اسمه ومجده وكرامته وعليه، فبعد إظهار الله لغضبه يعود نور محبته ساطعاً بكل ثبات، وبعد القصاص تأتي الرحمة، وبعد الآلام يظهر المجد.

في ذلك كله، وعلى مر الأجيال، تلقى الشعب التعليم والتوجيه بواسطة النبوة. وقد كانت لهم عبر النبوة بصيرة نافذة من جهة جوهر التاريخ وغايته. على نحو لا نجد له مثيلاً لدى أي شعب آخر. ويوضح لنا كتاب العهد القديم أن إتمام مشيئة الله وتحقيقها بإقامة ملكوت الله هما مضمون التاريخ ومجراه وغايته، على نحو لا نجد له مثيلاً لدى أي شعب آخر. تلك هي مشورة الله، مشورة النعمة والفداء، الموجودة منذ الأزل والتي ستقهر كل مقاومة، فبعد الآلام مجد، وبعد الصليب تاج. ويوماً ما سينتصر الله على جميع أعدائه ويجعل شعبه يشترطون في إتمام كل مواعيده. فلسوف يأتي ملكوت البر والسلام والخير الروحي والمادي. ولن تشترك في مجد تلك المملكة إسرائيل وحدها، بل جميع الأمم أيضاً. لأن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وحدانية الله تحمل معها وحدة البشرية ووحدة التاريخ. حينئذ تمتليء الأرض من معرفة الرب ويبلغ موعد العهد كمال التحقيق : أنا أكون لكم إلهاً، وأنتم تكونون لي بنين وبنات. يقول الرب.

وتزخر النبوات والمزامير بهذه التطلعات. وليس ذلك فقط، بل تستمر فتخبر عن الطريقة التي بها سوف يؤسس الله بها ملكوته في المستقبل ويوطده. ومن ثم تصير تلك التطلعات هي الآمال النبوية بالمعنى الحصري. وهي تبين لنا كيف أن مُلك الله على ال{ض في المستقبل سينحصر في شخص معين يتحقق على يده، ألا وهو المسيح. صحيح أن قوماً في أيامنا حاولوا عزل هذه التطلعات النبوية كلها عن الديانة اليهودية الأصلية ونسبوها إلى زمن السبي. غير أن هذا الموقف لقي رفضاً شديداً من قبل آخرين وتم دحضه على نحو وافٍ. فإن الرجاء المستقبلي، بكل عناصره، يتمحور حول فكرتين، وهما: يوم الرب الذي سيكون يوم محاكمة للشعوب ولإسرائيل ؛ والمسيح الذي سيحقق الفداء بالتالي. وكل من هاتين الفكرتين ليستا من الأفكار التي شاعت أولاً لدى أنبياء القرن الثامن ق.م، بل كان لهما وجود قبل ذلك بزمن طويل، وكانتا بالأحرى من الأفكار التي عالجها على نحو أكثر تحديداً الأنبياء الذين حفظت أسفارهم لنا.

ويخبرنا الكتاب المقدس نفسه بالكثير. إذ يرجع أثار تطلعات المستقبل إلى أقدم الأزمنة. وقد كان لها بالطبع صفى عامة آنذاك، إلا أن حقيقة وجودها إنما هي بالتحديد برهان على قدم عهدها. كما أن التطور التدريجي الذي يمكن أن يُلاحظ منذ وقت هذه التطلعات هو بمثابة دليل داعم قوي. ففي الوعد الرئيسي الوارد في تكوين ٣:١٥، توضع عداوة بين نسل المرأة ونسل الحية، ويُقطع الوعد بأن الأول سيسحق رأس الأخير.

و أول ما ينبغي أن نفكر فيه من جهة "نسل المرأة"، على رأي كالفن، هو كل الجنس البشري الذي لا بد لهو وقد استعيد إلى جانب الله بفضل عهد النعمة، من أن يخوض الحرب ضد جميع القوى المعادية لله. والذي له المسيح رأسه وربه. إنما يبت التاريخ أن هذا الجنس البشري الذي يخوض الحرب ضد نسل الحية، لا يشمل بحال من الأحوال البشر جميعاً، بل إنه يتناقض عدداً وينحصر أكثر فأكثر في جماعة قليلة، ذلك أن الوعد يحفظ فقط في نسل شيث.

وبعد إبادة البشرية الأولى بالطوفان، سرعان ما يدخل العائلة فاصل بين حام ويافت وسام من جهة أخرى. وإذا الوعد الآن يخصص على نحو يصير فيه يهوه إله سام، ويتوسع يافث كثيراً ثم يصل أخيراً إلى السكن في خيام سام، وصير كنعان عبداً لهم (تكوين ٩:٢٦،٢٧). وغذ تصبح في ما بعد معرفة الله وعبادته الصحيحتان مهددتين بالضياع. يختار الله من نسل سام إبراهيم الذي سيصير بركة لكثيرين بعد أن يباركه الرب. ففي الواقع أن جميع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

شعوب الأرض سوف ترغب بشدة وتطلب باجتهاد البركة التي يهبها الله لإبراهيم ونسله، وهكذا يتباركون في المسيح الذي هو نسل إبراهيم (تكوين ١٢:٢،٣). ومن بني يعقوب وأسباط إسرائيل يحدد يهوذا في ما بعد باعتباره من سيحظى بمقام أرفع من مقام إخوته جميعاً. ووفقاً لاسمه، صار هو المحمود والمقتدر بين إخوتك (تك ٢٩:٣٥؛ ١أي ٥:٢). فإخوته يمدحونه ويحمدونه وأعداؤه يخضعون له، وسيدوم ملك يهوذا حتى يأتي ذاك الذي ستخضع له الشعوب (تك ٤٩:٨ – ١٠)، أما الاسم "شيلون" في الآية العاشرة من تكوين ٤٩، واضحة كل الوضوح رغم ذلك، فليهوذا المقام الأول بين أسباط إسرائيل كلها، والسيادة على إخوته، ومنه سيطلع حاكم الشعوب في المستقبل.

وقد تحقق هذا الوعد جزئياً في داود، وبه انتقل إلى مرحلة جديدة من التطور، فحينما استراح داود من جميع أعدائه، تبادر إلى ذهنه مشروع بناء بيت للرب، وبدلاً من أن يبني داود بنفسه بيتاً للرب، أعلمه الرب بفم ناثان النبي بان الله سيؤسس له بيتاً بجعل السلالة الملكية إرثاً لنسله. فالرب سيجعل اسم داود عظيماً كأسماء العظماء الذين في الأرض. وبعد وفاة داود، سيقيم الرب سليمان ابنه على العرش ويكون له أباً، وأخيراً سيثبت بيته ومملكته إلى الأبد، إذ يجعل كرسي داود ثابتاً إلى الأبد (٢ صم ٧:٩-١٦؛ مزمور ٨٩:١٩-٣٨). من ذلك الوقت فصاعداً تركزت آمال قديسي الله على بيت داود، وأحياناً تكتفي النبوة بالتوقف عند هذا الحد.

****

لكن التاريخ أثبت أنه لم يحقق هذا الرجاء أي ملك من بيت داود.وارتباطاً بهذا التاريخ، أشارت النبوة بوضوح أكثر إلى المستقبل الذي فيه يظهر ابن داود الحقيقي ويجلس على عرش أبيه إلى الأبد. وشيئاً فشيئاً بات ابن داود هذا الآتي في المستقبل بعرف باسم " المسيا ". هذا الاسم مسيا ظل زمناً طويلاً، يطلق على أي شخص غي الأمة يختار ويمسح أي وظيفة ما. وكان المسح بالزيت عند شعوب الشرق قديماً ممارسة عامة، ومن شانه تليين البشرة التي لوّحتها الشمس، وإعادة الراحة والطراوة إلى الجسم (مزمور ١٠٤:١٥؛ متى ٦:١٧). كما كان علامة فرح (أمثال ٢٧:٩) يمتنع عنها عند التذلل (٢ صم ١٤:٢؛ دا ١٠:٣)؛ وكان أيضاً إشارة إلى الإكرام والمودة؛ وقد استعمل لمعالجة المرض ؛ وكان يستعمل مع الحنوط تكريماً للموتى. كذلك دخلت العبادة إجراءات مسح بالزيت، فكان له أهمية دينية. وفقد أقام يعقوب الحجر الذي أسند إليه رأسه في بئر سبع ليكون عموداً تذكارياً وصب عليه زيتاً، علامة على تكريسه للرب الذي ظهر له (تك ٢٨:٢٠ – ٢٢). وبحسب الشريعة التي أعطيت لموسى فيما بعد، مسحت بالزيت خيمة الاجتماع وأثاثها ومذبحها لتقديسها وتكريسها للرب. وجرى المسح نفسه للأشخاص المدعوين إلى خدمة خاصة.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فإننا نقرأ عن مسح الأنبياء بضع مرات فقد مسح إيليا أليشع (١ ملوك ١٩:١٦) وفي المزمور ١٠٥:٥ تستعمل كلمة مسحاء (أي ممسوحين) مرادفة "للأنبياء". ثم إن الكهنة، بمن فيهم رئيس الكهنة خصوصاً. كانوا يمسحون (لا ٨:١٣،٣٠ ؛ مز ١٣٣:٢). وهكذا كان يمكن أن يدعي رئيس الكهنة "الكاهن الممسوح" (لا ٤:٣،٥؛٦:٢٢). كذلك نقرأ خصوصاً عن مسح الملوك، كشاول (١صم ١٠:١)، وداود (١ صم ١٦:١٣، ٢صم ٢:٤)، وسليمان (١ مل ١:٣٤). وسواهم، من هنا دعي الملوك مسحاء الرب (١ صم ٢٦:١١؛ مز ٢:٢). وفي استعمال المسح هذا ما يلقي الضوء على أغراض أخرى. فإن التعبير "مسيح" (أو ممسوح) يستخدم في الكتاب المقدس عدة مرات للدلالة على أولئك الأشخاص الذين يختارهم الله ويُعدهم لخدمته، حتى وإن لم يحدث مسح فعليٌّ بالزيت. ففي المزمور ١٠٥:١٥ يسمى الآباء "مسحاء" و"أنبياء" وفي مواضع أخرى. يدعى شعب إسرائيل، وإلا فريقاً ملكه، مسيحاً. وفي إشعياء ٤٥:١ يطلق الاسم عينه على كورش، ومهما يكن، فليس المسح بالزيت إلا علامة تشير من جهة إلى التكريس لخدمة الله؛ ومن جهة أخرى إلى الاختيار للخدمة والدعوة إليها والإعداد لأجلها من قبل الله بالذات. ولما مسح داود على يد صموئيل حل عليه روح الرب منذ اليوم فصاعداً (١ صم ١٦:١٣).

بهذا المعنى صار "المسيا" (أو المسيح) يعني على نحو مميز ملك المستقبل الآتي من بيت داود. فهو على كل حال الممسوح بصورة فريدة. لأن الله نفسه عينه ومسحه لا بالزيت الرمزي فقط بل بالروح القدس نفسه وبلا حساب (كز ٢:٢،٦؛ إش ٦١:١) ولا يمكن أن نحدد على نحو قاطع متى ابتدئ يستخدم الاسم "مسيا" (مسيح أو ممسوح) كاسم علم دون أداة التعريف. ولكن يبدو أن الاسم في دانيال ٩:٢٥ قد بات يظهر بهذا الشكل، وكان هذا الاسم، مستعملاً بهذا المعنى، قد شاع زمن وجود الرب يسوع بجسده على الأرض، ففي يوحنا ٤:٢٥ تقول السامرية للمسيح: أنا أعلم أن مسيّا يأتي – وهنا لا تظهر أداة التعريف وعليه، فمع أن اللفظة "مسيح" كانت بادئ ذي بدء ذات معنى عام ويمكن أن تستخدم للدلالة على أشخاص شتى، فإنها أصبحت بالتدريج اسم علم يستعمل فقط للإشارة إلى ملك المستقبل الآتي من بيت داود، فهو وحده المسيّا، أي المسيح، ولا أحد سواه.

****

صورة ذلك المسيّا تطورت الآن وظهرت في نبوة العهد القديم بطرق متنوعة، وفي مقدمتها دائماً فكرة كونه ملكاً، فهو يدعى المسيح لأنه قد مسح ملكاً (مز ٢:٢،٦). ويتوقع داود نفسه، على أساس الوعد المعطى له، أنه من نسله سيطلع رئيس للشعب يملك ويحكم بالبر. وقد وضع الله لبيت داود عهداً أبدياً، متقناً في كل شيء ومحفوظاً (٢ صم ٢٣:٣-٥). هذا هو رجاء جميع الأنبياء وناظمي المزامير. فإن خلاص الشعب في المستقبل مرتبط ببقاء بيت داود الملكي، وملك المستقبل الآتي من ذلك البيت هو في الوقت عينه الملك على مملكة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الله. وليس ملكوت الله صورة شعرية مجازية أو مفهوماً فلسفياً، بل هو حقيقة واقعة وجزء لا يتجزأ من التريخ. إنه يأتي من فوق، وهو وحي روحي ومثالي، لكنه مع ذلك سيبرز إلى الوجود في الزمان تحت ملك من بيت داود. فهو ملك إلهي، إلا أنه مع ذلك مملكة بشرية وأرضية وتاريخية، بكل معاني الكلمات. من هنا ترسم أمامنا، في النبوة، مملكة الله الآتية بظلال وألوان مستمدة من الظروف الراهنة آنذاك، على نحو ينبغي ألا يؤخذ بحرفيته، لكنه مع ذلك يخلّف انطباعاً عميقاً عن حقيقة تلك المملكة. فليس أمامنا صورة حلم. بل واقع سوف يتحقق هنا على الأرض، وفي التاريخ، في ظل ملك من بيت داود.

ولكن مع أن مملكة المسيح هذه على الأرض لا يعلى عليها كواقع ملموس، فهي تختلف كثيراً عن سائر الممالك الأرضية. فعلى الرغم من حقيقة كونها تبرز إلى الوجود بمحاربة جميع الأعداء وهزيمتهم فإنها مملكة بر وسلام كاملين، قوام برها في الأساس إغاثة للبائس وتخليص الفقراء (مز ٧٢:١٢-١٤). وفي ما عدا ذلك، فإنها تنتشر إلى أقاصي الأرض فوق جميع الأعداء، وتظل قائمة إلى الأبد.

وعلى رأس تلك المملكة رئيس هو إنسان حقاً إلا أنه سما على جميع البشر قدراً وكرامة. إنه إنسان، يولد من نسل داود، وهو ابن داود، ويدعى ابن الإنسان، ومع ذلك فهو أكثر من مجرد إنسان؟ إذ أنه يجلس في مقام الكرامة عن يمين الله (مز ١١٠:١)، وهو رب داود (مز ١١٠:١)، وابن الله بمعنى خاص جداً (مز ٢:٧). إنه عمانوئيل، أي الله معنا (إش ٧:١٤)، والرب برنا (إر ٢٢:٦؛٣٣:١٦)، من فيه يأتي الرب نفسه في النعمة إلى شعبه ويسكن بينهم. وفي النبوة سيان أن يملك الرب أو المسيح على شعبه. فأحياناً يقال إن الرب - ثم يقال أيضاً أنه مسيحه – سوف يظهر ليدين الشعوب ويفدي الشعب. وهكذا نقرأ مثلاً في أشعيا ١١،٤٠:١٠ : "هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له.....ز كراع يرعى قطيعه." كما نقرأ في حزقيال ٣٤:٢٣ أن الرب سيقيم راعياً واحداً، ألا وهو عبده داود، فيرعى شعبه ويكون لهم راعياً. ويقول النبي حزقيال عن أورشليم الجديدة إن اسمها سيكون "يوه شمَّه " أي الرب هناك (حز ٤٨:٣٥). ويعرض إشعياء الحقيقة عينها بقوله إن الله معنا في المسيح (إش٧:١٤). ويجمع حزقيال الفكرتين إذ يقول : " وأنا الرب أكون لهم إلهاً، وعبدي داود رئيساً في وسطهم"(حز ٣٤:٢٤)، كما أن ميخا أيضاً يقول إن المسيح سوف يرعى الشعب بقدرة الرب، بعظمة اسم الرب إلهه (مي ٥:٤). لهذا السبب، وفي ضوء العهد الجديد، نستطيع تأويل هذه الفصول بوصفها ذات مدلول نبوي. ففي المسيح ياتي الله نفسه إلى شعبه: وهو أكثر من مجرد إنسان. إنه إعلان الله الكامل والصورة المنظورة التي بها يحل بين الناس، ولذلك أيضاً يسمى بأسماء الله. إذ يدعى عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام (إش ٩:٥).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

بصرف النظر عن تفوق هذا المسيا بعظمته ومكانته وقدرته، فإن النبوة تضيف إلى ملامحه الفريدة لمحة رائعة جداً. إذ يقال لنا أنه سيولد في زمن عصيب جداً وفي ظروف وضيعة للغاية، ولعل هذه الفكرة متضمنة في نبوة إشعياء أن العذراء الشابة سوف تحبل وتلد ابناً، وأن هذا الابن سيشترك في معاناة شعبه، إذ يأكل فقط زبداً وعسلاً، وهذان هما المنتجان الرئيسيان في بلد حل به الخراب ولم يجر بناؤه من جديد (إش ٧:١٤،١٥). ولكن هذه الفكرة، على كل حال، معبر عنها بوضوح في أشعياء ١١:١ (قارن إش ٥٣:٢). ففي هذا الموضع يقول النبي أنه سوف يخرج قضيب من جذع يسّى وينبت غصن من أصوله. وتفسير ذلك أن بيت داود الملكي سيبقى موجوداً زمن ميلاد المسيح، ولكن ذلك البيت سيكون بلا عرش، فهو يشبه جذعاً قد قطع، ولكنه مع ذلك يخرج قضيباً. ويعبر ميخا عن الفكرة عينها بكلام آخر عندما يقول إن بيت لحم أفراتة – كناية عن بيت داود الملكي إذ كانت بيت لحم مينة داود واقعة في أفراتة – وإن اعتبرت هي الصغرى بين ألوف يهوذا، فمنها يطلع الرئيس الذي سيكون عظيماً إلى أقاصي الأرض (مي ٥:٢). ومن خنا أيضاً يدعى المسيح "غصناً" في غرميا ٢٣:٥، ٣٣:١٥، وزكريا ٣:٨، ٦:١٢. فعندما تهلك اسرئيل وتحل الكارثة بيهوذا، إذ يزول بالفعل كل أمل وينقطع كل رجاء، عندئذ يقيم الرب غصناً من بيت داود الملكي فيبني هيكل الرب ويؤسس ملكوته على الأرض. وعليه، فمع أن المسيح سيظهر بقوة ومجد كثير، فهو أيضاً سيظهر متواضعاً، راكباً لا على فرس حرب بل بالأحرى على حمار. على جحش ابن إتان، علامة على المسالمة (زك ٩:٩) إنه سيكون ملكاً، لكن كاهناً أيضاً. ففيه ستجتمع هاتان الوظيفتان كما في ملكي صادق، وسيشغلها معاً إلى الأبد (مز ١١٠:٤؛ زك٦:١٣).

وتستخدم فكرة تواضع المسيح كفكرة انتقالية إلى الفكرة الأخرى التي فيها يقدم إشعياء الشخص الآتي باعتباره عبد الرب المتألم. فكان ينبغي أن يكون الشعب القديم مملكة كهنة (خروج ١٩:٦)، إذ كان ينبغي أن يخدم الله ككاهن ثم يحكم الأرض كملك، تماماً كما خلق الإنسان أصلاً على صورة الله، ولذلك أعطي السيادة على الأرض كلها، وعليه ففي صورة المستقبل تبرز إلى المقدمة حيناً هذه الناحية، وحيناً آخرا تلك. فنقرأ مراراً وتكراراً في النبوات والمزامير أن الله سيجري الحق بواسطة شعبه. وينصرهم على جميع أعدائهم ويوصف هذا النصر أحياناً بعبارات قوية: سيقوم الله فيتبدد أعداؤه، ويهرب من أمام وجهه مبغضوه؛ يذريهم كما يذري الدخان؛ وكما يذوب الشمع قدام النار يبيد الأشرار من قدام الله وسوف يسحق رؤوس أعدائه وإلهامه الشعراء للسالكين في الذنوب؛ ويرجع شعبه من أعماق البحر، لكي يصبغوا أرجلهم بدماء أعدائهم، وتصطبغ بها ألسن كلابهم. هذه اللعنات كلها ليست تعبيراً عن الانتقام الشخصي بل هي أوصاف بلغة العهد القديم لغضب الله على أعداء شعبه. غير أن ذلك الإله الذي سوف يعاقب الأشرار على هذا النحو، هو نفسه سيعطي جميع شعبه البر والسلام والفرح، وذلك أن الشعب يخدمه بإجماع تام، ففي أعقاب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

معاناة الظلم والآلام يبلغ شعب الله حالة من المجد والخلاص فيها يقيم الله عهداً جديداً، فيكتب ناموسه في داخلهم ويهبهم قلباً جديداً وروحاً جديداً، فيسلكون في فرائضه ويحفظون أحكامه ويعملون بها(حز ٣٦:٢٥، ومواضع أخرى).

هذان الوجهان من ملامح صورة المستقبل لشعب العهد القديم سيظهران أيضاً في المسيّا. فلسوف يكون هو ملكاً يحطم أعداءه بقضيب من حديد ويكسرهم كإناء خزف (مز ٢:٩ ؛ ١١٠:٥،٦). وليس ثمة عرض لانتصار الله هذا على أعدائه أكثر واقعية مما نجده في إشعياء ٦٣:١-٦. فهناك نقرأ أن الرب سيأتي في ثياب مصبوغة بالدم، بهياً بملابسه، متعظماً بكثرة قوته، متكلماً بالبر العظيم للخلاص. وجواباً عن سؤال النبي: ما بال لباسك محمر، وثيابك كدانس المعصرة؟ يقول الرب : قد دست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي احد، فدستهم بغضبي، ووطئتهم بغيظي، فرُشّ دمهم على ثيابي، ولطخت كل ملابسي؛ لأن يوم النقمة في قلبي وسنة مفديّيَّ قد أتت. وفي رؤيا ١٩:١٣-١٥ تنسب إلى المسيح بعض ملامح هذه الصورة، عندما يأتي في الأيام الأخيرة ويغلب أعدائه. وهذا الأمر هو تماماً كما ينبغي أن يكون، لأن المسيح مخلص وديان، وحمل وأسد في آنٍ واحد.

وبالحقيقة أن المسيح هو أيضاً مخلّص وفادٍ. فكما أن الرب بارٌ ورحيم، وكما أن يومه هو يوم غضب ويوم فداء، وكما أن الشعب القديم سيملك على أعدائه بسلطان ملوكي، كذلك تماماً المسيح هو في الوقت عينه ملك الله الممسوح وعبد الرب المتألم. وهو يعلن نفسه على هذه الصورة الأخيرة في إشعياء خصوصاً، بهذا الصدد يفكر النبي أولاً في شعب إسرائيل العائش في حال السبي، والذي له – بتألمه على هذا النحو – دعوة يتممها اتجاه جميع الشعوب. ولكن إذ تتطور هذه النبوة في إشعياء، تتركز ملامح هذا المتألم، أكثر فأكثر، في ثورة شخص واحد، وهذا الشخص، من حيث كونه كاهناً، يكفر بآلامه عن خطايا الشعب، ومن حيث كونه نبياً. يعلن هذا الخلاص إلى أقاصي الأرض، ومن حيث كونه ملكاً ينال نصيبه بين الأعزاء ويقسم غنيمة مع العظماء (إش ٥٢:١٣- ٥٣:١٢).

ففي الملك الممسوح، يعلن الرب مجده وقوته، وجلال اسمه وسموه (مي ٥:٣). وفي عبد الرب المتألم، يعلن نعمته وغنى رحمته (إش ٥٣:١١). وتنتهي النبوة عند بني إسرائيل إلى هاتين الصورتين وللنبوة تلك جذور ضاربة في التاريخ. فإسرائيل، من حيث هو أمة، يعتبر ابناً له (هو ١١:١). ومملكة كهنة (خر ١٩:٦)، مخلوعاً عليها بهاء الرب (حز ١٦:١٤)؛ إلا أنه في الوقت عينه يعد أيضاً عبداً لله (إش ٤١:٨،٩)، متلقياً التعبيرات التي بها عبر الرب أعداؤه (مز ٨٩:٥١،٥٢)، ومن أجل الرب إيمات اليوم كله ويُحسب مثل غنم للذبح (مز ٤٤:٢٢). وهناك صفة نبوية لمجد إسرائيل وآلامه معاً، سواء كأمة على العموم أم كأفراد يمثلونها، مثل داود وأيوب. فكل ذلك يشير إلى المسيح. والعهد القديم كله، بنواميسه وفرائضه، بوظائفه وخدماته، بوقائعه ومواعيده، إنما هو بالآلام التي ستأتي على المسيح

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

والأمجاد التي بعدها (١بط١:١١). وكما أن الكنيسة في أيام العهد الجديد صارت مع المسيح نبتةً واحدة بكونها ماتت عن الخطية وتعيش لله (رو ٦:١١)، وكما أن بوجودها تكمّل ما يتبقى لها أن تتحمله من آلام مع المسيح (١:٢٤)، وعلى صورة المسيح أيضاً تتغير من مجد إلى مجد (٢كو ٣:١٨)، فكذلك تماماً كانت جماعة العهد القديم أيضاً – في كل معاناتها وعزّها – تمهيداً وظلالاً لإذلال المسيح وترفيعه، وهو الكاهن الملك الذي سيؤسّس في وقته ملكوت الله على الأرض.

وما من شك أن العهد الجديد ينظر إلى ذاته في هذا الضوء وبهذه الطريقة يتصور علاقته بالعهد القديم. فالمسيح يقول إن الكتب المقدسة تشهد له (يو ٥:٣٩ ؛ لوقا ٢٤:٢٧)؛ وهذه الفكرة عينها تكمن في أساس العهد الجديد بكامله، وغلباً ما تذكر فيه بصراحة أيضاً.فإن تلاميذ المسيح الأولين اعترفوا به بوصفه المسيّا لأنهم وجدوا أنه ذلك الشخص الذي سبق أن تنبأ عنه موسى والأنبياء (يو ١:٤٥) ويشهد بولس أن المسيح مات، وأنه دُفن، وأنه قام حسب الكتب (١كو ١٥:٣، ٤). ويكتب بطرس أن روح المسيح في الأنبياء سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها (١بط ١:١١). وتبيّن جميع أسفار العهد الجديد، تصريحاً أو تلميحاً، أن العهد القديم بكامله قد بلغ إتمامه في المسيح. وقد سبق أن أُشير إلى المسيح، بوصفه إتماماً وتحقيقاً، في الناموس بما فيه من مطالب خُلقية وطقسيّة ومدنيّة، وبهيكله ومذبحه، وكهنوته وذبائحه، وكذلك تماماً في النبوة بوعدها بالملك الممسوح من بيت داود، وبشاهدتها أيضاً لعبد الرب المتألم. كما أن ملكوت الله بجملته، على حد ما أُنبئ به في الشعب القديم وتاريخه، ورسمت خطوطه مسبقاً في الناموس على نحوٍ قوميّ، وأعلن في الأنبياء بلغة العهد القديم، قد اقترب في المسيح، وبه وبكنيسته نزل من السماء على الأرض.

هذه العلاقة الوثيقة بين العهدين القديم والجديد هي ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى أصالة الإيمان المسيحي وصحته. فإن الاعتراف بأن يسوع هو المسيح، أي المسيّا الموعود به، لهو لب الإيمان المسيحي ومميزه عن سائر الأديان الأخرى. لذلك يلقى هذا الاعتراف أشد المقاومة من قبل اليهود وغيرهم، وأيضاً من قِبل كثيرين من أهل زماننا ممن يُدعون مسيحيين. ويحاول هؤلاء بأن يجادلوا أن يسوع ما فكر في نفسه قط بوصفه المسيح ولا قدّم نفسه بهذه الصورة، أو أنه، على الأغلب، صاغ في هذه الصورة العرضيّة وعيه الديني الداخلي ودعوته الأخلاقية السامية. غير أنّ شهادات العهد الجديد أكثر جداً وأقوى من أن تسمح بالبقاء على هذا الموقف طويلاً. لذا نجد آخرين ممن هم أقرب عهداً إلينا يذهبون مذهباً أبعد من ذلك كثيراً، فهم لا يستطيعون أن ينكروا أن يسوع اعتبر نفسه أنه المسيح، وأنه قد نسب إلى ذاته كل أنواع الخصائص والقدرات الخارقة. لكنهم بدل الانحناء أمام هذا الواقع، وقبول المسيح باعتبار أنه فعلاً ما قاله عن نفسه، يذهبون إلى أن يسوع كان كائناً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

بشرياً عرضةً للأوهام والحماسة وكل أنواع الشذوذ. وبالحقيقة أن هذا الهجوم يوغل في الباطل حتى ينسب بعضهم إلى يسوع كل نوع من مرض النفس والجسد، زاعمين أنهم بذلك يفسرون التصور الرفيع الذي كان له بخصوص ذاته. وهذا النزاع حول شخصية المسيح، وقد اتخذ في السنوات الأخيرة من جديد صفةً خطيرة، إنما يثبت مجدداً أن السؤال "ماذا تظنون في المسيح؟" قد عاد الآن يشغل أذهان البشر ويقسمهم كما فعل في عهود التاريخ السالفة. فكما أن اليهود فكروا في المسيح أفكاراً شتىّ، فظنّ بعضهم أنه يوحنا المعمدان، وآخرون إيليا، وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء (متى ١٦:١٣، ١٤)، وكما ظنّ بعضهم آنذاك أنه مجنون ومسكون بالشياطين (مر ٣:٢١، ٢٢)، كذلك تماماً استمرت الحال على ذلك الموال طوال القرون وما تزال حتى الآن. فحتى لو نحّينا جانباً أولئك الذين يزعمون أن المسيح هو متوهم أو متعصب، لبقي آلاف لا يعترفون أن الربّ يسوع هو مسيح الله في حين يقرّون بأنه نبيّ.

غير أن المسيح جدير كلياً بهذه التسمية ولا يرضى باعتراف آخر سواها. صحيح إنه إنسان، ويوصف هكذا على صفحات العهد الجديد كلها. إلا أنه مع ذلك الكلمة الأزلي الذي ولد في الزمن (يو ١:١٨ ؛ في ٢:٧). إنه اشترك معنا في اللحم والدم، ويشبه إخوته في كل شيء (عبرانيين ٢:١٤، ١٧). فهو من الآباء بحسب الجسد (رومية ٩:٥)، ومن نسل إبراهيم (غلاطية ٣:١٦)، وقد طلع من يهوذا (عب ٧:١٤ ؛ رؤيا ٥:٥)، وتحدّر من نسل داود (رو ١:٣)، وقد ولِد من امرأة (غل ٤:٤). إنه كائن بشري بكل معنى الكلمة الحقيقي، لأن له جسد (متى ٢٦:٢٦)، ونفساً (مت ٣٨: ٢٦)، وروحاً (لوقا ٢٣:٤٦)، وذهناً بشرياً (لو ٢:٥٢)، وإرادةً بشرية (لو ٢٢:٤٢)، ومشاعر بشرية من راحة واستراحة وأكل وشرب (يوحنا ٤:٦، ٧، ومواضع أخرى).ففي كل مكان وكل حين يُعلن يسوع نفسه في العهد الجديد بوصفه كائناً بشرياً ليس من شيء بشري غريب عنه. والواقع أنه تجرّب في كل شيء مثلنا، إلا أنه كان بلا خطية (عب ٤:١٥). وفي أيام جسده قدّم، بصراخ شديد ودموع، طلباتٍ وتضرعات، وتعلّم الطاعة مما تألم به (عب ٥:٧، ٨).

وعليه، فإن معاصريه لم يشكو لحظة في طبيعته البشرية الحقيقية. وهو يُسمى في الأناجيل عادةً باسمه العادي البسيط "يسوع". صحيح أنه هذا الاسم قد أُطلق عليه امتثالاً للرسالة التي بلّغها الملاك وأن له دلالةً على أنه – له المجد – هو مخلّص الشعب (مت ١:٢١). ولكن هذا الاسم بحد ذاته كان معروفاً بين العبرانيين من قديم الزمان، وقد دُعي به أشخاص كثيرون. فالاسم "يسوع" بالعربية هو تعريب للاسم العبري "يهوشع" أو "يشوع"، وأصله جذر يفيد الإنقاذ أو التخليص. وكان خليفة موسى يدعى أولاً هوشع، ولكن موسى دعاه فيما بعد يهوشع أو يشوع (عدد ١٣:١٦)، ويدعى في أعمال ٧:٤٥ وعبرانيين ٤:٨ "يسوع" (باليونانية). وهكذا نقرأ في العهد الجديد أيضاً اسمي شخصين آخرين دُعيا بالاسم نفسه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

(لوقا ٢٩:٣، في الأصل ؛ كولوسي ١١:٤). فالاسم بحد ذاته إذاً ما كان ممكناً أن يحمل اليهود على الاعتقاد أنّ ابن مريم هو المسيح.

ولذا كان مألوفاً أن يتحدثوا عنه بوصفه الإنسان الذي يقال له يسوع (يو ١١:٩)، وابن يوسف النجار المعروف عندهم أخواته وإخوته (متى ٥٥:١٣ ؛ يو ٤٢:٦)، وابن يوسف الذي من الناصرة (يو ٤٥:١)، ويسوع الناصري، ويسوع الذي من الجليل (متى ٦٩:٢٦)، والنبي الذي من ناصرة الجليل (مت ١١:٢١). وقد كان اللقب العادي الذي خُطب به يسوع هو رابيّ أو ربّوني، ومعناه : معلّم، سيد، أو سيدي (يو ٣٨:١ ؛ ١٦:٢٠)، وهو اسم خُطب به في ذلك الزمن الكتبة والفريسيّون عادةً (مت ٨:٢٣). ولا يقتصر المسيح على استعمال هذا اللقب لنفسه، بل يُضفي عليه أيضاً معنىً فريداً بالنسبة إلى شخصه (مت ٨:٢٣ – ١٠). وطبعاً، لا تفيد هذه الأسماء والألقاب أنّ الناس اعترفوا به أنّه المسيح. وليست هذه بالضرورة هي الحال عندما يخاطبونه مستخدمين اللفظة العامة "يا سيد" (مر ٢٨:٧). أو العبارة "ابن داود" (مر ٤٧:١٠)، ولا عندما يدعونه نبياً (مر ١٥:٦ ؛ ٢٨:٨).

****

ومع أن يسوع، وإن بدا إنساناً حقيقياً بكل معنى الكلمة، فهو عالمٌ منذ البداية أنّه أكثر من مجرد إنسان، وقد اعترف به تلاميذه وأقرّوا على نحوٍ متزايدٍ وضوحاً بأنه هو حقاً هكذا. وليست هذه فقط هي الحال في إنجيل يوحنا وفي رسائل الرسل، كما يتضح غالباً، بل إن ذلك يُرى أيضاً بوضوح عند قراءة أناجيل متى ومرقس ولوقا. ومهما يكن، فلا يمكن الدفاع البتّة عن تلك المفرقة التي يحول قومٌ في العصر الحديث أن يُقيموها بين يسوع التاريخ ومسيح الكنيسة. فهم يزعمون أن الربّ يسوع لم يكن – ولم يرغب أن يكون – أكثر من مجرّد إسرائيلي تقيّ، وعبقريّ دينيّ، ومعلّم عظيم للشبان، ونبيّ كغيره من الأنبياء الذين ظهروا سابقاً في إسرائيل. ويذهبون إلى كل ما تعترف به الكنيسة مما يتعدى يسوع التاريخ هذا إنما من نسج الخيال وقد أضافه تلاميذ المسيح إلى صورة السيد. وهذه الإضافات، في رأيهم، هي الحبل المعجزي بالمسيح، ووظيفته النبوية، وموته الكفاري، وقيامته، وصعوده إلى السماء، وما إلى ذلك.

ولكن في مواجهة هذا التصور بمجمله اعتراضات عديدة وخطيرة بحيث لا يمكنه الصمود في وجه أي منها. ومهما يكن، فإن كانت الوقائع العديدة المشار إليها آنفاً من نسج الخيال ومُضافة إلى أسطورة يسوع، فينبغي للمرء أن يأتي بتفسير ما يبيّن كيف توصل التلاميذ إلى مثل هذه الروايات ومن أين استقوا المواد التي بها لّفقوا هذه الخرافات المحكمة. وما كان الانطباع الذي تُخلّفه شخصية المسيح الفائقة للطبيعة ليتلاءم البتة مع تصورات كهذه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فالصورة الحاصلة هنا، ولو كانت لشخص مميز رفيع المقام، لن يدخل في قوامها أي عنصر مكوّن لشخصية المسيح الذي تعترف به الكنيسة. والعناصر المكونة لصورة المسيح عند أولئك ينبغي أن تُلتمس بالتالي – والواقع أنها تلتمس فعلاً – لدى الفرق اليهودية في ذلك الزمان، أو لدى الديانات اليونانية والفارسية والهندية والمصرية والبابلية، وهكذا تُحرم المسيحية استقلاليتها وفرادتها وتغدوا أشتاتاً مجمعة من البدع الوثنية واليهودية.

علاوة على أن تلك الأناجيل الثلاث قد كتبها أُناس كان لهم في أنفسهم اقتناعاً راسخاً بأن يسوع هو المسيح. فقد كُتبت في وقت كانت الكنيسة فيه على قيد الوجود زمناً، وكانت الكرازة الرسولية قد سبق أن انتشرت في جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك، وكان بولس قد كتب عدة رسائل. ولا يُعرف في الفترة الأولى من تاريخ الكنائس أي شيء عن نزاع قام بين الرسل وشركائهم في العمل حول شخصية المسيح. بل إنهم جميعاً راسخون في الإيمان بإنّ يسوع هو المسيح، وبإنّ الله جعل يسوع الذي صلبه اليهود ربّاً ومسيحاً، وباسمه يهب الله التوبة ومغفرة الخطايا (أعمال ٢:٢٢ – ٣٨).

وقد كان هذا الإيمان منذ البدء هو أساس الكنيسة المسيحية. فيؤكد بولس في الأصحاح الخامس عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس أنّ مسيح الكتاب المقدس، المسيح الذي مات ودفن وأُقيم، كان هو موضوع الكرازة الرسولية وغرض الإيمان المسيحي، وأنه لولا هذه الحقائق لكانت الكرازة والإيمان باطلين ولكان خلاص الذين رقدوا في المسيح وهماً وبلا أساس. فلا خيار بين هذين الأمرين : إما أن يكون الرسل شهود زورٍ لله، وإما أن يكونوا قد شهدوا بالحق وأعلنوا ما كان منذ البدء، مل رأوه بعيونهم وشاهدوه، ما لمسته أيديهم بخصوص كلمة الحياة (١يو ١:١). كذلك أيضاً لابدّ أن يكون المسيح إما نبياً زائفاً وإما الشاهد الأمين، البكر من الأموات، ورئيس ملكوت الأرض، الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه (رؤيا ١:٥، ٦). فلا تضارب بين يسوع والتاريخ ومسيح الكنيسة. وما شهادة الأنبياء إلا ما وهب لهم بإرشاد الروح القدس من إعلان وتفسير لشهادة المسيح عن نفسه. وبُنيان الكنيسة موطد على أساس الرسل والأنبياء، حيث المسيح نفسه هو حجر الزاوية (أف ٢:٢٠). ولا أحد يستطيع أن يضع أساساً آخر غير الذي وضعه هؤلاء (١كو ٣:١١).

****

بالرغم من أن الموضوع يبدو مشوقاً إلا أن المجال لا يتسع الآن لإيراد عرض وافٍ لمضمون تلك الشهادة التي قدّمها المسيح عن نفسه والتي أدلى بها الرسل عن سيدهم وربّهم. ويجدر بنا بعض الوقت لفت الانتباه إلى بعض النقاط التفصيلية.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

لقد جاء الربّ يسوع مبشراً باقتراب ملكوت الله، كما سبق أن نادى بذلك يوحنا المعمدان، وأعلن يسوع أن الدخول في ذلك الملكوت هو عن طريق الإيمان والتوبة (مرقس ١:١٥). أنّ المسيح يضع نفسه في علاقة خاصة بذلك الملكوت مختلفة تماماً عن علاقة يوحنا أو أيّ أحد آخر من الأنبياء. فهؤلاء جميعاً قد تنبأوا عن الملكوت(متى ١١:١١ – ١٣)، ولكن المسيح هو صاحبه ومالكه. صحيح أنّه قد قبله من عند الآب الذي جعله له في المشورة الأزلية (لوقا ٢٢:٢٩)، لكنه بالتالي ملكوت الله بالتحديد، والمسيح على رأسه يدير شؤونه، بسلطانه المطلق، لأجل خير تلاميذه فالآب هو من أعدّ وليمة عرس لابنه (مت ٢٢:٢)، إلا أنّ الابن هو العريس (مر ٢:١٩ ؛ يوحنا ٣:٢٩)، وهو الذي سيحتفل بعرسه إذ يتحد بخاصته في المستقبل (مت ٢٥:١). والآب هو صاحب الكرم، إلا أنّ الابن هو الوارث (مت ٢١:٣٣، ٣٨). وهكذا يدعو المسيح ملكوت الله ملكوته هو أيضاً، وهو يتحدث عن كنيسته الخاصة مبنية على أساس صخرة الاعتراف به (مت ١٢:٣٩، ٤٢). ولأجله ينبغي أن يُهجر ويُنكر كل شيء، من أبٍ وأم، وإخوة وأخوات، وبيوت وحقول، ونفس أو ذات. ومن أحبّ أبً أو أمً أكثر منه فلا يستحقه. ومن ينكره ويعترف به قدّام الناس، فتبعاً لذلك سينكر أو يُعترف به قدّام الآب الذي في السماء.

هذه المكانة الرفيعة التي ينسبها المسيح إلى نفسه في ملكوت السماء تؤيدها جميع أقواله وأفعاله، وهذه كلها توافق مشيئة الآب تماماً. والمسيح هو الوحيد الذي بلا خطية على الإطلاق. فلم يصدر عنه قط أيّ تعدٍّ لمشيئة الله، ولا يعترف البتة بأيّ خطية ولا بأيّ خطأ. صحيح أنه سمح لنفسه أن يعمده يوحنا المعمدان، ولكن ذالك لم يكن قط لكي ينال كغيره غفران الخطايا (متى ٣:٦). إذ إنّ يوحنا المعمدان يبادر تواً إلى ممانعة اعتماد المسيح، علماً منه بأنً معموديته هي للتوبة ومغفرة الخطايا. وقد أقرّ المسيح بصوابية ممانعة يوحنا، إلا أنّه ردّها بالقول أنّه يطلب المعمودية لا لينال شخصياً غفران الخطايا بل ليكمل كلّ برّ (مت ٣:١٤، ١٥). أضف إلى هذا أنه يستنكر مخاطبة الشاب الغني له بقوله "أيها المعلّم الصالح" (مر ١٠:١٨)، لكنه لا يفعل ذلك لينكر كماله الأدبي. فقد قصد الشاب الغني إلى يسوع كما كان المرء يتوجه يوم ذاك إلى الكتبة والفريسيين مخاطباً إياهم بكل أنواع التحيات وعلامات الاحترام (مت ٢٣:٧). وقد أراد أن يتملق المسيح ويفوز بالحظوة لديه من طريق دعوته إياه معلماً صالحاً. ومثل هذه المداهنة لا تنطلي على المسيح. فهو لا يريد أن يحيا ويُكرم على طريقة الفريسيين والكتبة. والصالح، بمعنى الكلمة المطلق، هو الله وحده لأنه مصدر كل خير وبركة. وعليه، فالمسيح هنا لا ينكر البتة كماله الأدبي المطلق، بل إنما يعترض بالأحرى على التملق بغير تروٍّ من قبل الشاب الغني. وهكذا كانت الحال أيضاً في جثسيماني. فإن طبيعته الإنسانية ترى الآلام تنتظره وهي تلوح هائلة جداً، فتبرهن (تلك الطبيعة) حقيقتها بالصلاة إلى الآب لأجل أن تعبر تلك الكأس، غير أن المسيح يعلن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

في اللحظة عينها خضوعه الكامل وطاعته التامة إذ يضيف قائلاً : ولكن ليس كما أريد أنا، يا أبتاه، بل كما تريد أنت (مت ٢٦:٣٩)!

ولكن حتى في تلك اللحظة، سواء في جثسيماني أو فوق الجلجثة، لم تخرج من شفتيه كلمة واحدة بأية خطية. بل بالعكس، فكل ما هو عليه، وما يقوله، وما يفعله، متوافق تماماً مع مشيئة الآب المقدسة.

وقد علّم المسيح، لا كالكتبة، أي بتكرار أجوف للتقليد، بل كمن له سلطان، كمن تلقى سلطاناً نبوياً كاملاً من الله نفسه (مت ٧:٢٩). والسلطان نفسه ظاهراً في أعماله. فهو يخرج الشياطين بروح الله (مت ١٢:٢٨)، وبإصبع الله (لو ١١:٢٠)، وله سلطان أن يغفر الخطايا (مت ٩:٦)، وأيضاً سلطان أن يضع حياته وأن يأخذها من جديد (يو ١٠:١٨). هذا السلطان كله تلقاه من الآب. وهو يرد كل أقواله وأفعاله إلى وصية الآب. وطعامه هو أن يفعل مشيئة الآب (يو ٤:٣٤)، بحيث إنه استطاع قبيل نهاية حياته على الأرض أن يقول إنه مجد الآب، وأعلن اسمه، وأنهى عمله (يو ١٧:٤، ٦). فالعلاقة بالملكوت هذه التي وضع المسيح – بشخصه وأقواله وأفعاله – نفسه فيها، معبراً عنها على نحوٍ وافٍ في أنه المسيّا المنتظر. وهنالك الآن، كما كان على مدىً طويل، قدرُ غير يسير من التساؤل حول "هل اعتبر يسوع نفسه المسيّا الموعود أم لا؟ وإن كان نعم، فكيف توصلّ إلى هذا الإدراك؟".

فيما يتعلق بالسؤال الأول، لا يمكن أن يوجد في ذهن أحد أيّ شك في أنّ الجواب هو نعم، وذلك بعد قراءة الأناجيل بفكر متجدّد – ولا أعني إنجيل يوحنا وحده، بل أيضاً أناجيل متى ومرقس ولوقا. لذلك نذكر بعض الآيات. فإن المسيح أعلن في مجمع الناصرة أن نبوة أشعياء تمت في ذلك اليوم (لو ٤:١٧ وما يليها). وجواباً عن سؤال يوحنا المعمدان : هل كان يسوع هو المسيح؟ يُشير يسوع إلى أعماله مؤكداً على نحوٍ قاطع أنه المسيح (مت ١١:٤ وما يليها). وهو يصدق على اعتراف بطرس : أنت المسيح ابن الله الحي، ويرى فيه إعلاناً من أبيه (مت ١٦:١٦، ١٧). وطلبة أم ابني زبدي تصدر عن الإيمان بأنّ يسوع هو المسيح، وهو ينظر إليها من هذه الزاوية ويفسرها (مت ٢٠:٢٠). ثم إنّ تفسيره للمزمور ١١٠ (مت ٢٢:٢٤)، ودخوله إلى أورشليم (مت ٢١:٢ وما يليها)، وظهورات في الهيكل (مت ٢١:١٢ وما يليها)، وتأسيس للعشاء المقدس (مت ٢٦:٢٦ وما يليها) – هذه كلها – مؤسسة على إقراره بأنّه هو المسيح، وابن داود وربّه، وأنه يقدر أن يحل عهداً جديداً محل القديم. والأمر الحاسم نهائياً في هذه المسألة هو أنه قد حُكم عليه وقُتل ولا شيء آخر سوى اعترافه بأنه المسيح ابن الله (مر ١٤:٦٢). والعنوان الذي كُتب على الصليب، يسوع الناصري ملك اليهود، يضع ختم الصحة على ذلك.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أما كيف وبأيّة طريقة بلغ المسيح هذا الإدراك، فمسألة أخرى. وتزعم الفكرة العامة بخصوص ذلك، والتي تحظى الآن بقبول واسع جداً، أنّ يسوع لم يكن يعرف شيئاً في بادئ الأمر عن مفهوم كونه مسيّا، وأنّ هذا المفهوم جاءه لاحقاً، بعد معموديته أيضاً، بل أيضاً فيما بعد، أي بعد اعتراف بطرس وبسببه. وهكذا يفترض أن الربّ يسوع قبل هذا المفهوم وتحت الضغط، أو كشكل لدعوته الدينة الخُلقية أقل وفاءً بالغرض ولكن لابدّ منه. على أنّ جميع الافتراضات من هذا القبيل تبقى خارج نطاق الحقيقة وتناقض على خط مستقيم الكلمة المقدسة وجوهر شخصية المسيح، لا ننكر أنّ إدراك المسيح البشري قد شهد تطوراً طبيعياً، إذ نقرأ بصريح العبارة أنه كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس (لو ٢:٥٢). فإن إدراكه البشري لشخصه الخاص، وللعمل الذي أعطاه إياها الآب ليعمله، ولماهيّة الملكوت الذي جاء ليؤسسه، قد شهد تنويراً تدريجياً وتعميقاً مطرداً في كنف الأسرة الهادئة في الناصرة، بمعونة أسفار العهد القديم المقدسة وفي عهدة أبويه التقيّين.

إلا أن المسيح، وهو بعد فتىً، كان يعلم – كما صرّح في الهيكل أنه ينبغي أن ينهمك في عمل أبيه (لو٢:٤٩). وقبل أن يعتمد على يد يوحنا، كان عالماً أنه لا يحتاج إلى تلك المعمودية لمغفرة الخطايا بل إنه طلب قبولها لكي يكون مطيعاً لمشيئة الله في كل شيء. وعلى هذه، لم تكن تلك المعمودية بالنسبة للمسيح حداً لماضٍ أثيم، لأن ذلك لم يكن لديه قط؛ بل كان ذلك بالأحرى خضوعاً كاملاً وتكريساً كلياً من جانبه للعمل الذي أعطاه إياه الآب كي يعمله، كما كان من جانب الله تأهيلاً شاملاً وتجهيزاً للقيام بذلك العمل. وقد عرفه يوحنا حالاً أنّه المسيّا، وفي الغد اعترف به بهذه الصفة التلاميذ الذين اختارهم (يو ١:٢٩:٥٢).

****

غير أن هذا الاعتراف، إن صح التعبير، كان اعترافاً مبدئياً. فلم يكن بحال من الأحوال ما كان ينبغي أن يكونه، وما كان سيصير إليه. ذلك أنه كان مقروناً بكل أنواع الخطأ في ما يتعلق بطبيعة كونه المسيّا. فالتلاميذ – رغماً عنهم – ظنّوا أن يسوع سيكون مسيحاً كما صوره يهود ذلك الزمان عموماً، أي ملكاً يشنّ الحرب على الأمم الوثنية ويقيم إسرائيل مجدداً على رأس تلك الأمم المقهورة. حتى أن يوحنا المعمدان وقع فريسة للشك بعد ظهور المسيح علناً وعدم قيامته بهذه التطلعات (متى ١١:٢ وما يليها). ثم إن التلاميذ كان يصحح المسيح أفكارهم ويعلّمهم الحق فيما يخص ذلك. فقد كان الرجاء المسيّاني اليهودي عميق الجذور في نفوس التلاميذ بحيث إنهم، بعد القيامة أيضاً، سألوا يسوع في هذا الوقت يرّد الملك إلى إسرائيل (أعمال ١:٦).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فبسبب من هذه التصورات المغلوطة التي كانت ذائعة وشائعة حتى ضمن جماعة التلاميذ، رأى المسيح من اللازم أن يتبع في كرازته خطاً تفسيرياً تعلّيمياً محدداً. ومن المعلوم جيداً أن الربّ يسوع، في الفترة الأولى من خدمته، لم يقل قط بصريح العبارة إنه المسيح. فقد كان مضمون كرازته هو ملكوت السماء، وهو يشرح بإسهاب طبيعة هذا الملكوت وأصله ومسراه واكتماله، مستعملاً الأمثال بصورة خاصة. ثم إن أعمال المسيح هي أعمال الرحمة، ألا وهي شفاء كل مرض وضعف في الشعب. هذه الأعمال تشهد له، ومنها ينبغي لتلاميذه – وليوحنا المعمدان أيضاً – أن يكوّنوا فكرة صحيحة عن هويته وطبيعة رسالته. حتى إننا نستطيع التعبير عن المقصود هنا على نحوٍ أقوى، فنقول إنّ كونه المسيّا تبدو سراً لا يجوز أن يذاع. فأكثر من مرة دفعت أعماله الذين حوله إلى التفكير في كونه المسيح، إلا أنه كان عندئذ يوصيهم بشدة بألا يطلعوا أحداً على ذلك. حتى إنه في أواخر حياته فعلاً، حينما صار معرفة التلاميذ به أفضل، وحينما اعترفوا على لسان بطرس بأنه المسيح ابن الله الحي، وقد كان ذلك في قيصرية فيلبس، فحينئذ أيضاً، ورغم كل شيء، نهاهم بتشديد عن الإفصاح عن ذلك (مت ١٦:٢٠ ؛ مر ٨:٣٠). حقاً، كان يسوع هو المسيح، لكنه كان كذلك بمعنىً آخر يختلف عما تصوره يهود ذلك الزمان. فهو لم يرد، ولا سمح لنفسه، أن يكون مسيحاً بحسب توقعاتهم. ولما لاح خطر ذلك، انسحب لئلا يؤخذ بالقوة ويُنصب ملكاً (يو ٦:١٤، ١٥). لقد كان هو المسيح، وهو أراد أن يكون، إنما ليس كما يتفق مع مشيئة الناس ومسرّتهم، بل إنه أراد أن يكون هو المسيح على ما يتفق مع مشيئة الآب ومشورته، ومع نبوات العهد القديم.

لذلك اختار المسيح التعبير "ابن الإنسان" كاسم خاص دعا نفسه به. وهذا الاسم يخرج من شفتيه مراراً وتكراراً في الأناجيل. لا شك أن هذا الاسم مقتبس من دانيال ٧:١٣، حيث تصور ممالك العالم بهيئة حيوانات ولكن ملكوت الله يأتي على يد ابن إنسان. والمقطع الذي ترد فيه الآية المشار إليها جرى تأويله في بعض الأوساط اليهودية بمعنىً نبوي، ولذلك عُرف هذا اللقب (أي "ابن الإنسان") عند بعضهم على الأقل، بأنه تسمية للمسيح (يو ١٢:٣٤). ومع ذلك يبدو أن هذا الاسم لم يكن شائعاً، وكذلك لم تُضف عليه أهمية خاصة. إذ لا يمكن أن يربط بهذا الاسم مثل ما ارتبط بالاسم "ابن داود، ملك إسرائيل" من آمال وتطلعات جسدية. من هنا كان الاسم "ابن الإنسان" أنسب اسم ليسوع – إذ أنه عبر من جهة عن فكرة كونه المسيح الموعود به في النبوة، ومن جهة أخرى عن فكرة كونه كذلك بغير مفهوم الفكر الشائع بين اليهود.

ويمكن أن نبرهن على ما نذهب إليه بطريقة استعمال المسيح لهذا الاسم. فهو يستعمل هذا اللقب بالإشارة إلى نفسه في مواضع يمكن أن تندرج ضمن مجموعتين : الأولى حيث يتحدث عن فقره وآلامه وتواضعه؛ والثانية حيث يتحدث عن قدرته وجلاله ومجده. فمما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

قاله، مثلاً، ضمن المجموعة الأولى : أن ابن الإنسان لو يأتِ ليُخدم، بل ليخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين (مت ٢٠:٢٨). ومن المجموعة الثانية أنه أعلن أمام المحكمة العليا أنه حقاً المسيح، وقد أضاف إلى هذا الإعلان تصريحه : من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء (مت ٢٦:٦٤). وترد إلى خواطرنا مثل هذه الأفكار بعينها إذ نقارن آيات مثل متى ٨:٢٠ و١١:١٩ و١٢:٤٠ و١٧:١٢ و١٨:١١ و٢٠:١٨، وآيات أخرى مثلها وبآيات مثل متى ٩:٦ و١٠:٢٣ و١٢:٨ و١٣:٤١ و١٦:٢٧ و١٧:٩ و١٩:٢٨ و٢٤:٢٧ و٢٥:١٣، وما شابهها. فالمسيح يعرّف نفسه بهذا اللقب في شخصيته الكاملة، وفي تواضعه وتمجيده، وفي نعمته وقدرته، باعتباره المخلّص والديّان.

بهذا الاسم يلخص المسيح نبوة العهد القديم بكاملها عن المسيّا الآتي. وعلى حد ما سبق الإشارة، فإن الرجاء المسيّاني سار في شعبتين، إحداهما تختص بالملك الممسوح من بيت داود، والثانية بعبد الرب المتألم. وفي الحالتين، تتوازى هاتان الشعبتان إحداهما مع الأخرى خلال أسفار العهد القديم، لكنهما في سفر دانيال تتلاقيان. فإن ملكوت الله سيكون سلطاناً بمعنى الكلمة الحقيقي والكامل، غير أنّ ذلك السلطان سيكون سلطاناً بشرياً، أعني سلطان ابن الإنسان. وهكذا يقول المسيح الآن أيضاً إنه حقاً ويقيناً ملك، فهو ملك إسرائيل، الملك الموعود به والممسوح من قبل الله. لكنه مع ذلك ملك بمعنىً يختلف عن الذي تعارف عليه اليهود. إنه ملك يركب حماراً، جحشاً ابن أتان؛ ملك بر وسلام؛ ملك هو أيضاً كاهن؛ ملك هو أيضاً مخلّص. ففيه تتحد القوة والمحبة، والبر والنعمة، والرفعة والتواضع، والله والإنسان.

فإن المسيح هو الإتمام الكامل لشريعة العهد القديم ونبوته، ولكل الآلام والأمجاد التي حصلت تمهيداً وكمثالاً لما يأتي – عند بني إسرائيل، وهو النظير المثالي للكهنة والملوك عندهم، والنظير أيضاً لشعب إسرائيل نفسه، إذ كان ينبغي أن يكون ذلك الشعب مملكة كهنوتية وكهنوتاً ملوكياً. إنه الملك الكاهن، والكاهن الملك؛ عمانوئيل، الله معنا. من هنا أنّ الملكوت الذي جاء ليبشر به ويؤسسه هو في آن واحد معاً داخلي وخارجي، غير منظورٍ ومنظورُ، روحي ومادي، حاضرُ وآتٍ، خاصٌ وكوني، من فوق ومن تحت، نازل من السماء لكن قائمٌ على الأرض. ولسوف يعود المسيح حقاً. فقد جاء ليخلص العالم وينقذه؛ وسيعود ليدينه ويحكمه.

****

لمحةٌ أخرى يجب أن تضاف إلى صورة يسوع هذه التي تبرزها لنا الأناجيل، ألا وهي أنّه مدركٌ كونه ابن الله بمعنىً خاص جداً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

استعمل هذا الاسم :ابن الله" في العهد القديم، للدلالة على الملائكة أيضاً (أيوب ٧:٣٨)، وعلى شعب إسرائيل، وعلى القضاة في ذلك الشعب (مز ٦:٨٢)، وعلى الملوك. وفي العهد الجديد يسمى آدم ابن الله (لو ٣٨:٣)، ويسمى بهذا الاسم أولاد الله (٢كو ١٨:٦)، إلا أنّه هنا يُطلق على المسيح بصورة فريدة. فهو يدعى بهذا الاسم من عدة جهات ومن قبل أشخاص مختلفين : يوحنا المعمدان ونثنائيل (يو ٣٤:١، ٤٩)، الشيطان والمسكون، رئيس الكهنة وجمهور اليهود وقائد المئة (مت ٦٣:٢٦ ؛ ٤٠: ٢٧، ٥٤)، التلاميذ (مت ٣٣:١٤ ؛ ١٦:١٦)، كتبة الأناجيل (مر ١:١ ؛ ٣١:٢٠). صحيح أن المسيح لم يدعُ نفسه بهذا الاسم عادةً، إلا أنه مع ذلك قبل بلا اعتراض هذا الاعتراف ببنوته الإلهية، وأشار في بعض الأحيان صراحةً إلى كونه ابن الله.

لا شك طبعاً في أنَّ مختلف الأشخاص الذين دعوا المسيح بهذا الاسم لم يستعملوه جميعاً بالمعنى العميق عينه. فلم يكن لهذا الاسم المعنى والمغزى الواحد بعينه على لسان كل من قائد المئة (مت ٥٤:٢٧) ورئيس الكهنة (مت ٦٣:٢٦) وبطرس (مت ١٦:١٦). فقائد المئة كان وثنياً ولم يدعُ المسيح ابن الله بل ابناً لله. ورئيس الكهنة كان يفكر خصوصاً بكونه المسيح، فيما كان يستجوب يسوع هل هو المسيح ابن الله. ولكن عندما اعترف بطرس، بعد زمنٍ طويل من إتباعه المسيح، أنه يقيناً المسيح ابن الله الحي من عنده كلام الحياة الأبديّة، فعندئذ هناك – بلا شك – في تصريحه معنىً أعمق مما قصد الآخرون، معنىً أصبح التلاميذ يفهمونه تدريجياً على نحوٍ أكثر عمقاً وغنىً بعد قيامة المسيح.

صحيح أنه بمعنى الحكم الديني منسوب إلى العهد القديم، يمكن أيضاً أن يدعى الرب يسوع بهذا الاسم. فبوصفه الملك الذي مسحه الله، يمكن ويجوز أن يدعى ابن الله. فهو ابن العليّ الذي يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه (لو ٣٢:١). وهو القدوس المولود من مريم (لو ٣٥:١)، وقدوس الله كما دعاه المسكون (مر ٢٤:١). وهو ابن الله المبارك، بحسب التعبير الذي استخدمه رئيس الكهنة على سبيل تعريف المسيّا بأكثر تحديد (مر ٦١:١٤). غير أن هذه النبوة حكومة الله لها في المسيح معنىً أعمق مما أدركه الآخرون، إذ إنها فيه تصدر عن علاقة مختلفة بالآب. فهو حُسب ابن الله لا لمجرد كونه قد حُبل به في مريم على نحوٍ خارق (لو ٣٥:١) ولا لكونه عند المعمودية وهب الروح القدس بغير حساب (مت ١٦:٣). ولا هو كذلك أيضاً فقط لأنه بفضل قيامته جعله الله ربّاً ومسيحاً (أع ٣٦:٢). صحيح أن الآب، في هذه المناسبات، اعترف به وحيّاه باعتباره الابن، غير أنّ أهليته المسيانية لم تبدأ أولاً عند ذاك، بل إنها ترجع إلى ماضٍ أكثر قدماً. ويعلمنا الكتاب المقدس أن يسوع بالحقيقة لا يدعى ابن الله لأنه المسيّا، ملك إسرائيل الممسوح؛ بل بالعكس تماماً، فإياه قد جعل الله ملكاً لأنه كان ابن الله بمعنىً فريد تماماً.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وليس من شكٍ على الإطلاق في أن الكلمة المقدسة تعرض هذه القضية بهذه الطرقة تماماً. فحتى في زمنٍ مبكر كالذي كُتبت فيه الآية الثانية من ميخا ٥، نقرأ أن مخارج الرئيس الذي سيملك على إسرائيل هي منذ القديم، منذ أيام الأزل. وفي عبرانيين ١:٥، ٥:٥ نجد أن الآية السابعة من المزمور الثاني : "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك" تُفسر بالإشارة إلى الأزل الذي فيه كان المسيح الابن وهو بهاء مجد الله ورسم جوهره، موجوداً في حضن الآب. وفي رومية ٤:١ يصرح الرسول أن المسيح قد تبرهن بالقوة أنه ابن الله بالقيامة من الأموات. فهو، بمعنىً خاص، ابن الله منذ الأزل، ولكن ذلك ظهر بأكثر جلاء وكمال في الحبل الخارق به، وفي معموديته، وفي قيامته.

هذا التعليم عينه نجده في الأناجيل بحسب متى ومرقس ولوقا. فالمسيح مدرك أن له بالآب علاقة تختلف جوهرياً عن علاقة الآخرين كلهم به. وقد كان عالماً، وهو فتىً بعد، أنه ينبغي أن يُعنى بعمل أبيه (لو ٤٩:٢). وعند معموديته، ثم أيضاً فيما بعد عند التجلّي على الجبل، أعلن الله صراحةً، بصوت جاء من السماء، أن هذا هو ابنه الحبيب الوحيد الذي به سرّ كل السرور (مت ١٧:٣ ؛ ٥:١٧).

ويتحدث المسيح عن نفسه باعتباره الابن المرتفع فوق الملائكة كثيراً جداً (مت ٣٦:٢٤ ؛ مر ٣٢:١٣). فالآخرون المرسلون من عند الله هم عبيد، أما هو فالابن الوحيد، حبيب الآب ووارثه (مر ٦:١٢، ٧). وهو من يرسل إلى تلاميذه موعد أبيه (لو ٤٩:٢٤). ولسوف يأتي ذات يوم في مجد أبيه (مر ٣٨:٨). وهو لا يتكلم عن الله البتة بمخاطبته "أبانا"، بل يتكلم عنه دائماً بالقول "أبي"، وتبعاً لذلك يضع الصلاة الربانية "أبانا"، على ألسنة تلاميذه (مت ٩:٦). وبكلمة واحدة : هو الابن مع أداة التعريف (مر ٣٢:١٣)، في حين جميع تلاميذه هم أبناء الآب (مت ٤٥:٥). وكل شيء قد دُفع إليه من الآب، فليس أحدٌ يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له الآب (مت ٢٧:١١). وهو بعد القيامة أعطى تلاميذه تفويضاً أن يتلمذوا جميع الأمم ويعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، ويعلموهم جميع ما أوصى به (مت ١٩:٢٨).

أما إنجيل يوحنا، وفيه لا يتكلم البشير فقط بل الرسول أيضاً، فلا يضيف جديداً على ذلك بصورة جوهرية، بل يعرضه على نحو أعمق وأوسع. حقاً أن الاسم "ابن الله" له في هذا الإنجيل أيضاً معنىً ثيوقراطي أحياناً، غير أن له على العموم معنىً ومغزىً أعمق.، فليس الآخرون فقط يدعون المسيح مراراً ابن الله (٣٤:١، ٥٠ ؛ ٦٩:٦)، بل هو أيضاً يدعو نفسه بهذا الاسم. وفي حالات أخرى أكثر عدداً، يتكلم عن ذاته بوصفه الابن، دون إضافة أي مضاف إليه. وبهذا الوصف ينسب إلى نفسه القدرة على إجراء العجائب (٣٥:٩ ؛ ٤:١١)، وإقامة الموتى – في الروح والجسد – وإحيائهم (٢٠:٥ وما يليها)، ويساوي نفسه بالله – كما فهم اليهود من ذلك أيضاً (١٨:٥ ؛ ٣٣:١٠ وما يليها). وفاقاً لذلك يتحدث عن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الآب وعن ذاته بصفته الابن، بطريقة فريدة بحيث تكون أقواله عديمة الصلة والملاءمة لو لم يكن الله أباه بمعنىً خاص جداً، ولو لم يكن بينه وبين الآب وحدة تامة (١٨:٥). فكل ما ينسبه إلى الآب، ينسبه أيضاً إلى نفسه. فالآب أعطاه سلطاناً على كل جسد، حتى إن مصير جميع البشر منوط بالعلاقة التي يضعون أنفسهم فيها من جهته (يو ١٧:٣ ؛ ٤٠:٦). ومثله مثل الآب، يقيم ويُحيي من يشاء (٢١:٥)، ويُجري الدينونة على الجميع (٢٧:٥)، ويعمل كل ما يعمله الآب (١٩:٥)، وقد تلقى من الآب سلطاناً أن تكون له حياةٌ في ذاته (٢٦:٥). إنه والآب واحد (٣٠:١٠). وهو في الآب، والآب فيه (٣٨:١٠)، ومن رآه فقد رأى الآب (٩:١٤). صحيح أن الآب أعظم منه (٢٨:١٤)، لأن الآب قد أرسله، كما يعلن غير مرة (٢٤:٥، ٣٠، ٣٧). ولكن هذا لا ينتقص شيئاً من حقيقة كونه في مجد الآب قبل التجسد وسيعود إلى ذلك المجد حالاً (٥:١٧). فبنوته ليست قائمة على إرساليته، بل إرساليته قائمة على بنوته. ولذلك فهو الابن (مع أداة التعريف)، الابن الوحيد، الوحيد من الآب (١٤:١)، والكلمة الذي في البدء كان عند الله وكان هو الله (١:١)، ومخلّص العالم (٤٢:٤) الذي يعترف به توما ويخاطبه قائلاً "ربيّ وإلهي" (٢٨:٢٠).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثاني

طبيعتا المسيح

الإلهية والبشرية

إن الشهادة التي قدمها المسيح عن نفسه، بحسب الكتاب المقدس، طورتها وأيدتها كرازة الرسل. الاعتراف بأن إنساناً يُدعى يسوع المسيح وحيد الآب، اعتراف كهذا إنما يتعارض تماماً مع اختبارنا وتفكيرنا، كما يناقض على الأخص ميول قلوبنا، بحيث إن أحداً لا يستطيع الإقرار به – عن إخلاصٍ ومن كل النفس – إلاّ بفاعلية عمل الروح القدس. فبالطبيعة، يقف كل إنسان معادياً هذا الاعتراف، لأنه ليس اعترافاً يلائم طبيعة الإنسان. وليس أحد يقدر أن يقول يسوع ربٌّ إلا بالروح القدس، وليس أحد يتكلّم بروح الله يقول يسوع أناثيما (ملعوناً). فعلى الإنسان أن يعترف به أولاً مخلصاً له وملكاً(١كو ١٢:٣)

ومن هنا فلما ظهر المسيح على الأرض وصرّح بأنه ابن الله، لم يقتصر على مجرّد التصريح، بل اهتم – وما يزال يهتم – بأن هذا الاعتراف يجد طريقه إلى داخل العالم وأن تؤمن به الكنيسة. ولذا دعا رسله وأعطاهم تعليماته، وجعلهم شهوداً لأقواله وأعماله، ولموته وقيامته. وقد أعطاهم الروح القدس الذي أرشدهم شخصياً إلى الاعتراف بأنَّه ابن الله الحيّ (مت ١٦:١٦)، والذي جعلهم في ما بعد، منذ يوم الخميس فصاعداً، يعكفون على الكرازة بتلك الأمور التي رأوها بعيونهم، وشاهدوها، ولمستها أيديهم من جهة كلمة الحياة (١يو ١:١). والواقع أن الرسل لم يكونوا هم الشهود الأصليون. بل إن روح الحقّ، المنبثق من عند الآب هو الشهد الأصيل والمعصوم والقدير للمسيح، وليس الرسل شهوداً إلاّ فيه وبه (يو ٢٦:١٥ ؛ أع ٣٢:٥). وهو روح الحق نفسه الذي عن طريق شهادة الرسل يقود كنيسة كل العصور، إلى الاعتراف، ويعينها على التمسك به : يا ربُّ، إلى من نذهب؟ وكلام الحياة الأبديّة عندك. ونحن قد آمنّا وعرفنا أنّك أنت المسيح ابن الله الحيّ (يو ٦٨:٦،٦٩).

عندما يقص كتبةُ الأناجيل الأربعة على التوالي أحداث حياة المسيح، يُشيرون إليه عادةً باستعمال الاسم "يسوع" فقط دون إضافة أيّ لقبٍ خاصٍّ أو تحديد آخر. فيعلنون أن يسوع ولد في بيت لحم، وأن يسوع اقتيد إلى البرّيّة، ويدوّنونه إنما هو يسوع التاريخ الذي عاش ومات في فلسطين. وهكذا لا نجد في رسائل الرسل إلاّ مرآت قليلةً يدعى فيه المسيح باسمه التاريخي فقط. فبولس مثلاً يقول إنّه ليس أحد يقدر أن يقول : يسوع ربّ إلاّ بالروح القدس (١كو١٢:٣). ويوحنّا يشهد أن كل من يؤمن أن يسوع هو المسبح فقد ولد من الله (١

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يو٥:١؛ قارن ٢:٢٢ و٤:٢٠). ونقرأ في سفر الرؤيا عن إيمان يسوع وشهادة يسوع وشهوده.

إلا أنّ استعمال هذا الاسم مجردة من أي لقب أو صفة يبقى نادراً في الرسائل. فعادةً يرد الاسم مقترناً بالرب، أو المسيح، أو أبن الله، وما شابه من تسميات؛ والاسم الكامل الذي نقرأه عادة هو : ربنا يسوع المسيح. ولكن بصرف النظر عن كون الاسم "يسوع" مستعملاً وحده أو مقترناً بسواه من الألقاب، نجد أنه ينطوي دائماً على التعبير عن ارتباطه بالشخص التاريخي الذي ولد في بيت لحم ومات على الصليب.

فإن العهد الجديد بكامله، سواءٌ في ذلك الرسائل أو الأناجيل، يستقر على أساس وقائع تاريخية. وليست شخصية المسيح فكرةً ولا مثالاً من نسج الذهن البشري، على ما ذهب إليه كثيرون في الماضي يجزم به قوم في زماننا، بل هو شخص حقيقي أعلن نفسه في زمن معيّن وظهر بهيئة بشريّة في يسوع الإنسان.

صحيح أن الأحداث التاريخية في حياة يسوع تتراجع في الرسائل إلى المؤخّرة. فلهذه الرسائل هدف مختلف عن غرض الأناجيل، إذ أنها لا تسد تاريخ حياة يسوع، بل تبرز الأهميّة التي كانت لتلك الحياة بالنسبة إلى فداء البشر. ولكنّ جميع الرسل عارفون بشخص يسوع وأقواله وأعماله، وهم يتقدّمون ليبيّنوا لنا أن يسوع هذا هو المسيح، وقد رفّعه الله إلى يمينه ليمنح التوبة وغفران الخطايا (أعمال ٢:٣٦؛٥:٣١).

لذلك يذكر الرسل غالباً بعض وقائع حياة المسيح. فهم يصوّرونه أمام أعين سامعيهم وقارئيهم (غل ٣:١). ويشدّدون على حقيقة كون يوحنا المعمدان هو سابقه الذي أعلن قدومه (أع ١٣:٢٥؛١٩:٤)، وعلى أنه جاء من سبط يهوذا ونسل داود (رو ١:٣؛رؤ٥:٥؛٢٢:١٦)، وعلى أنه ولد من امرأة (غل ٤:٤)، وختن في اليوم الثاني (رو ١٥:٨)، وتربى في الناصرة (أع ٣:٦:٢:٢٢)، وكان له إخوة أيضاً (١كو ٩:٥ ؛غل ١:١٩). ويخبرنا الرسل أنّ المسيح كان قدوساً على نحو كامل، وكان بلا خطيّئة، وقدّم لنا نفسه كمثال (١كو ١١:١ ؛ ١بط ٢:٢١)، ولم يعرفه عظماء هذا العالم أنه هو رب المجد (١ كو ٢:٨)، وقد قتله اليهود (أع ٤:١٠؛٥:٣٠؛ ١تس ٢:١٥) إذ مات معلّقاً على خشبة الصليب. لكنّه وإن كان قد تألّم كثيراً في جثسيماني وفوق الجلجثة، فقد حصّل لنا بسفك دمه المصالحة والبر الأبدي. لذلك أقامه الله، ورفّعه إلى يمينه، وعيّنه رباً ومسيحاً، ورئيساً مخلّصاً جميع الأمم.

يتضح جلياً من هذه المعطيات القليلة أن الرسل لم ينكروا أو يتجاهلوا أو يهملوا وقائع المسيحية التاريخية، بل بالأحرى قدّروها أوفى تقدير ووصلوا إلى لبّ أهميتها الروحية. فليس من أثر لأي فصل أو تنازع بين حادثة الفداء وكلمة الفداء، ولو حاول قوم في ما

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مضى جاهدين أن يبرزوا مثل هذا التناقض المزعوم. ذلك أنّ حادثة الفداء هي تحقيق كلمة الفداء. وما الثانية إلا الشكل الملموس والحقيقي للتعبير عن الأولى، كما أنها بالتالي في الوقت عينه تنوير بشأنها وتفسير لها.

و إذا بقي من شكٍّ ما حول ذلك، فإنّه يتبدّد كلياً بنتيجة المعركة التي كان على الرسل أن يخوضوها حتى في زمنهم المتقدم. فليس فقط في القرنين الثاني والثالث والقرون التالية، بل أيضاً في العصر الرسولي بالذات، ظهر أناس حسبوا وقائع المسيحية ذات أهمية ثانويّة وعرضيّة، أو تجاهلوها بجملتها، ذاهبين إلى أنّ الفكرة هي الأمر الرئيسي أو أنّها كافية بحدّ ذاتها. وقد احتجوا قائلين : أيّ فرق يُحدثه كون السيد المسيح قام من قبره بجسده أو لم يقم؟ فلو أنه يحيا فقط بالروح لظلّ خلاصنا مضموناً على نحوٍ وافٍ ! غير أنّ رأي الرسول بولس في القضية كان مختلفاً عن ذلك تماماً، وها هو في ١كورنثوس ١٥ يُلقي أوضح ضوء ممكن على حقيقة حادثة القيامة وأهميتها. فهو يكرز بالمسيح حسب الكتب المقدسة، بذلك المسيح الذي بمقتضى مشورة الآب مات ودفن وقام، بعد قيامته رآه جمهور من التلاميذ، وقيامته على أساس خلاصنا وضمانه اليقينيّ. كذلك يشدد يوحنا أكثر تشديد ممكن على واقع كونه معلناً لما رآه بعينيه وشاهده ولمسته يداه من وجهة كلمة الحياة (١يو ١:١-٣). والمبدأ الرئيسي عند ضدّ المسيح هو إنكار لتجسد الكلمة. أما الاعتراف المسيحي، على العكس، فقوامه الإيمان أن الكلمة قد صار جسداً، وأن ابن الله قد جاء بالماء والدم (يو ١:١٤ ؛ ١يو ٢:٣، ٣ ؛ ٥:٦). فالكرازة الرسولية كلها. في الرسائل والأناجيل، وفي العهد الجديد كله بالتالي، تُختصر وتُركّز في التصريح بأن يسوع، المولود من مريم والمصلوب : إنما هو المسيح ابن الله – ولنلاحظ ما في ذلك من دليل على ارتفاعه وتمجيده.

ومما تجدر ملاحظته الآن، فيما يتعلّق بمضمون الكرازة الرسولية وغرضها في استعمال الاسم " يسوع"، مجرّداً من كل قيد، هو نادر في الرسائل، فالرسل عادةً يتكلمون عن يسوع المسيح، أو المسيح يسوع، أو – على نحو أكمل بُعد – الربّ (أو ربّنا) يسوع المسيح. حتى أن البشيرين الذين يتكلمون عن "يسوع" عموماً في السياق التاريخي لأناجيلهم، يستعملون الاسم "يسوع المسيح"، إما في بداية الإنجيل أو في نقطة تحول هامة فيه. وهم إنما يفعلون هذا على سبيل التنويه بهوية الشخص الذي يكتبون الإنجيل عنه. وهم في أعمال الرسل والرسائل يصير هذا الاستعمال هو ممارسة الثابتة. فالرسل لا يتحدثون عن كائن بشريّ كان اسمه يسوح، بل إنهم بالإضافة إلى تعبيري الرب والمسيح، وما إليها، يعبرّون لتقديرهم عن هوية ذلك الشخص. فهم كارزون بالبشارة التي مفادها أنّ مسيح الله ظهر على الأرض في يسوع الإنسان.

هكذا عرف الرسل الربّ يسوع تدريجياً في أثناء مرافقتهم له، وخصوصاً بعد تلك الساعة الهامة في قيصريّة فيلبس، إذ هبط عليهم نور سُلّط على شخصه فاعترفوا جميعاً مع بطرس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أن يسوع هو ابن الله الحيّ (مت ١٦:١٦) وهكذا أعلن الربّ يسوع نفسه لهم، أولا تحت قناع الاسم "ابن الإنسان" على التقريب، ولكن بأكثر وضوح وصراحة وتدريجياً إذ قاربت حياته على الأرض نهايتها وفي صلاته الشفاعية يدعو نفسه باسم يسوع المسيح الذي أرسله الآب (يو ٣:١٧) وقد اتهمه المجلس اليهودي بالتجديف وحكم عليه بالموت، ذلك لأنه عرّف نفسه باعتباره المسيح ابن الله (مت ٦٣:٢٦). وعنوان فوق صليبه : يسوع الناصري ملك اليهود (مت ٣٧:٢٧ ؛ يو ١٩:١٩).

صحيح أن التلاميذ لم يستطيعوا التوفيق بين تصريحات يسوع هذه المسيانية وقرب آلامه وموته (مت ٢٢:١٦). ولكنهم بالقيامة، وما بعدها، أدركوا حتمية الصليب ومعناه. فالآن عرفوا بأنّ في القيامة جعل الله يسوع الذي قتله اليهود رباً ومسيحاً ورفّعه ليكون رئيساً ومخلّصاً (أع ٣٦:٢ ؛ ٣١:٥). لا يعني هذا أن يسوع لم يكن قبل القيامة هو المسيح والربّ، وأنّه صار كذلك بعد قيامته فقط، إذ سبق أن أعلن نفسه بأنّه المسيح وقد آمن به تلاميذه بهذه الصفة واعترفوا به هكذا سابقاً (مت ١٦:١٦). غير أنّه قبل القيامة كان هو المسيّا في صورة العبد المتألم هذا حجب عن أنظار الناس كرامته الفائقة بوصفه ابن الله. وفي القيامة عاد واتخذ المجد الذي كان له قبل كون العالم (يو ٥:١٧)، وبالتالي تعين ابن الله بالقوة، من جهة القداسة بالقيامة من الأموات (رو ٣:١).

ولذلك استطاع بولس أن يقول أنّه الآن، بعدما سُرّ الله أن يعلن له ابنه، لا يعرف المسيح حسب الجسد بعدُ (٢كو ١٦:٥). فقبل توبته عرف المسيح حسب الجسد فقط، وحكم عليه بموجب هيئته الخارجية وحسب، وفقاً لصورة العبد التي فيها سار على الأرض. يوم ذاك لم يكن يستطيع أن يصدق أن يسوع هذا الذي لم يكن له أي مجد، حتى عُلق على الصليب أيضاً، كان هو المسيح. ولكن الحال تغيرت كلياً بعد اهتدائه أو تجديده. فهو الآن يعرف المسيح ويحكم عليه لا بحسب المظهر، أي صورة العبد الخارجية، بل بحسب الروح، أي بحسبما كان في المسيح، بحسبما كان عليه بالحقيقة في الداخل وتبرهن في الخارج من خلال قيامته.

يمكن أن يقال القول عينه، بمعنى من المعاني، عن الرسل كلهم. حقاً أنّهم قبل آلام المسيح وصلوا إلى اعتراف إيماني بحقيقته النبوية. ولكن ظلّ قائماً في أذهانهم صعوبة التوفيق بين هذه الحقيقة وآلامه وموته. إلا أن القيامة حسمت هذا الصراع عندهم. فإذا يسوع في نظرهم هو نفسه المسيح. الذي نزل إلى أقسام الأرض السفلى ثم صعد أيضاً فوق جميع السماوات، لكي يتم كل شيء (أف ٩:٤).وإذ يتكلم الرسل عن المسيح، يفكرون معاً وفي آن واحد بالمسيح الذي مات والمسيح الحي المُقام، بالمسيح متألماً وبه ممجّداً. فهم لا يربطون بشارتهم فقط بيسوع التاريخ الذي عاش منذ سنين في فلسطين ثم مات فيها، بل أيضاً بيسوع نفسه كما هو الآن، مُمجدّاً وجالساً عن يمين عظمة الله. إنهم يقفون – إذا صح

 All rights reserved © 2008-2018

التعبير – عند نقطة تقاطع الخط الأفقي المربوط بالتاريخ الماضي بالخط العمودي الذي يربطهم بالرب الحي في السماء. فالمسيحية إذا دين تاريخي، غير أنّها في الوقت نفسه ديانة تعيش في الزمن آتية من الأزل. وتلاميذ المسيح لم يلقبوا يسوعيّن، نسبةً إلى اسم "يسوع" التاريخي ؛ بل إنهم مسيحيون، نسبةً إلى اسم "المسيح" الذي يبين مقامه ووظيفته.

****

هذا الموقف المميز الذي وقفه الرسل في كرازتهم بعد القيامة هو السبب الكامن وراء انقطاعهم عن الإشارة إلى يسوع باسمه التاريخي فقط، وتحدثهم عنه بدلاً من ذلك بالفعل دائماً بوصفه يسوع المسيح، أو المسيح يسوع، أو الرب يسوع المسيح، هلمّ جرّا. وفي الواقع أنّ اسم "المسيح" سرعان ما فقد في أوساط التلاميذ دلالته الوظيفيّة وصار متضمنّاً دلالة اسم العلم الشخصي وقد كان الاقتناع بأنّ يسوع هو المسيح قوياً جداً بحيث كان ممكناً أن يدعى "مسيّا" فقط، حتى دون أن تسبقه أداة التعريف، وقد ورد هذا الاسم في إنجيل يوحنا ١:٤١، ٤:٢٥. وبينما يقترن القول، يسوع والمسيح، في الإنجيل مرات عديدة (مثلاً، مت ١:١٨ ؛ ١٦:٢٠ ؛ مر ١:١) فإن ذلك يصبح القاعدة عند الرسل، ولاسيما بولس. ثم إنّ الاسم مقرون يسوع المسيح، حصل فيه غير مرةٍ تقديم وتأخير، ولاسيّما على يد بولس، بهدف تركيز مزيد من التشديد على أن يسوع هو المسيح، وعندئذ ورد الاسم بصورة "المسيح يسوع". وهذا الاسم، يسوع المسيح، أو المسيح يسوع، كان هو الأبرز في الكنائس الأولى. كذلك آلَ استعمال "الاسم" ودلالته في العهد القديم إلى المسيح أيضاً في العهد الجديد. فإن "اسم الربّ"، أو "الاسم" وحده، كان في القديم تسمية لمجد الله المعلن. وفي أيام العهد الجديد ظهر ذلك المجد في شخص يسوع المسيح، ولذلك تكمن قوة الكنيسة الآن في اسمه. فبذلك الاسم عمدّ الرسل (أع ٢:٣٨)، وتكلموا وعلّموا (أع ٤:١٨)، وشفوا المقعد (أع ٣:٦)، ونادوا بغفران الخطايا (أع ١٠:٤٣). وهذا الاسم يُقام ويهاجم (أع ٤ك٢٦)، والاعتراف به يجلب الاضطهاد _أع ٥:٤١). وهو يُضطهد (أع ٢٢:٨) ويتعظّم (أع ١٩:١٧). بهذا المعنى كان اسم يسوع المسيح كناية عن خلاصة وافية لاعتراف الكنيسة وقوة إيمانها ومرساة رجائها. فكما افتخرت إسرائيل في قديم الزمان باسم يهوه، هكذا تجد الكنيسة في العهد الجديد قوتّها في اسم يسوع المسيح. ففي هذا الاسم بلغ اسم يهوه إعلانه الكامل.

ثم إن اسم " الربّ" الذي يقترن في العهد الجديد دائماً باسم يسوع المسيح، يشير إلى الاتجاه نفسه. وفي الأناجيل ينادى المسيح باسم "يا ربّ" (أو "يا سيد") عدة مرات من قِبل أشخاص لم يكونوا من التلاميذ ومع ذلك استغاثوا به. ولا يحمل الاسم في حالات كهذه أكثر من المعنى المتضمن في "رابي" أو "يا معلم". ولكنّنا غالباً ما نجد تلاميذ المسيح أيضاً

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ينادونه بهذا الاسم. أضف أن اسم الربّ يستبدل أحياناً في كل من إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا باسم يسوع، ويحل محله، وأخيراً، يستعمل يسوع نفسه هذا الاسم، ملقباً نفسه ربّاً.

فعلى لسان يسوع نفسه، وبأفواه تلاميذه، تُضفى على اسم "الرب" دلالة أعمق مما يحمله اللقب "رابي" أو "يا معلم" ولا يمكننا أن نحدد تماماً ما قصده كل من تقدم إلى المسيح مخاطباً إياه بالقول "يا ربّ" أو "يا سيد". ولكن يسوع كان، في إدراكه الذاتيّ، بأنه هو المعلم والسيد والربّ العليّ، وقد نسب إلى نفسه سلطاناً جاوز سلطان الكتبة ومن ما يتضح جلياً في مقاطع مثل متى ١١:٢٣ – ١١ ومرقس ٢٢:١، ٢٧، حيث يصف المسيح نفسه بأنه السيد ويعبر عن ذلك بوضوح لا يرقى إليه أيّ شك، عندما يدعو نفسه ربّ السبت (مت ٨:١٢) وفي موضع آخر يدعو نفسه ابن داود وربّ داود (مت ٤٣:٢٢ – ٤٥). فهذه المطالب تتضمن أنه هو المسيح، الجالس عن يمين الله، والمتمتع بسلطانه، والديّان للأحياء والأموات.

هذا المعنى العميق المرتبط باسم الربّ ربما يعود أيضاً في جزء منه إلى حقيقة كون اسمي يهوه وأدوناي الواردين في العهد القديم قد ترجما باللفظة "كيريرس"، أيّ الربّ، في العهد الجديد، وهي بعينها اللفظة المستعملة في الإشارة إلى المسيح. ولّما أظهر المسيح ذاته أكثر فأكثر مبيّناً من هو بوضوح، وإذ فهم التلاميذ أكثر فأكثر إيّ إعلان عن الله جاءهم في المسيح، أخذ اسم الربّ أهمية خاصة. وفي العهد القديم آيات تتحدث عن الربّ تنطبق على المسيح في العهد الجديد بلا تردد. ففي مرقس ٣:١ تقتبس بالإشارة إلى المسيح الآية الواردة في أشعياء : أعدوا طريق الربّ، اجعلوا سبله مستقيمة، وتعني تمهيد يوحنا المعمدان الطريق أمام المسيح الآتي إتماماً لها. ففي المسيح جاء، الربّ، إلى شعبه. وباعتراف التلاميذ بيسوع ربّاً، عبّروا بوضوح ما بعده وضوح عن أن الله نفسه قد أعلن ذاته وأعطاهم نفسه في شخص المسيح. وقد بلغ توما ذروة هذا الاعتراف خلال إقامة الربّ يسوع على الأرض، وذلك حين خرّ عند قدمي المسيح المقام مخاطباً إياه بالقول : ربّي وإلهي (يو ٢٨:٢٠).

ثم صار اسم الربّ بعد القيامة هو الاسم الأكثر استعمالاً بالإشارة إلى المسيح بين التلاميذ. فنحن نجده باستمرار في سفر الأعمال وفي الرسائل، ولاسيما التي كتبها بولس. فأحياناً يستعمل اسمن "الربّ" وحده، ولكنّه عادةً يأتي مقروناً بسواه من التسميات أو الألقاب : الربّ يسوع، أو الربّ يسوع المسيح، أو ربّنا يسوع المسيح، أو ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، وهلّم جرّا. وباستعمال اسم الربّ هذا، يعبّر المؤمنون أن يسوع المسيح الذي أخلى نفسه حتى الموت موت الصليب، قد صار بفضل طاعته الكاملة ربّاً ورئيساً (أع ٣٥:٢ ؛ ٣١:٥)، وهو جالس عن يمين الله (أع ٣٣:٢)، وهو ربّ الكلّ (أع ٣٦:١٠)، ورأس هذا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الكل الكنيسة التي اقتناها بدمه (أع ٢٠:٢٨) ثم الخليقة كلها التي تخضع له يوماً بصفته ديّان الأحياء والأموات (أع ١٠:٤٢ ؛ ١٧:٣١).

ولذلك فإن كل من يدعو باسم يسوع مسيحاً وربّاً يخلص (أع ٢:٢١، ١كو ١:٢). وأن يكون المرء مسيحياً يعني أن يعترف بالفم ويؤمن بالقلب أن الله أقام المسيح من الأموات. ومضمون مناداتنا هو : المسيح يسوع ربّاً (٢كو ٤:٥). والواقع أن جوهر المسيحية يُخلّص في هذا الاعتراف على أكمل نحو، بحيث أن الرسول بولس يكاد يستعمل في كتاباته اسم "الربّ" كاسم علم شخصي يدل على المسيح في تمييزه من الآب والروح. فنحن المسيحيين لنا إله واحد، هو الآب الذي منه كل شيء، ونحن له؛ وربّ واحد، هو يسوع المسيح الذي به كل شيء، ونحن به؛ والروح الواحد بعينه، قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء (١كو ٨:٦ ؛ ١٢:١١). وكما أن اسم الله في رسائل بولس يصير هو الاسم المألوف للآب، فهكذا يصير اسم الربّ هو الاسم المألوف للمسيح.

وعلى ذلك، تطلب البركة الرسولية أن تكون للكنيسة نعمة الربّ يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس (٢كو ١٣:١٣). واسم الله الواحد يفسر نفسه في الأقانيم الثلاث – الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨:١٩).

****

ولما كان المسيح، بحسب شهادة الرسل، يحتل مثل هذه المكانة السامية، فلا عجب أن تُعزى إليه كل أنواع السجايا والأعمال الإلهيّة، وأن تُميّز فيه حتى الطبيعة الإلهية.

إن شخصية المسيح التي تطالعنا بها صفحات الكلمة المقدسة هي شخصية فريدة. فهو، من جهة، إنسانٌ حقٌّ. إذ صار جسداً وجاء بالجسد (يو ١:١٤ ؛ ١يو ٤:٢، ٣). وكان في شبه جسد الخطية (رو ٨:٣). وقد جاء، بحسب الجسد، من الآباء (رو ٩:٥)، ومن نسل إبراهيم (غل ٣:١٦)، ومن سبط يهوذا (عب ٧:١٤)، ومن ذريّة داود (رو ١:٣). وقد ولد من امرأة (غل ٤:٤)، واشترك معنا في اللحم والدم (عب ٢:١٤)، وكان له روح (مت ٢٧:٥٠) ونفس (مت ٢٦:٣٨) وجسد (١بط ٢:٢٤) فكان كائناناً بشرياً بكل معنى الكلمة تماماً. فلّما كان صبياً، نما وتقوى بالروح، وتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس (لو ٢:٤٠، ٥٢). وقد جاع وعطش، وحزن وفرح، وتأثّر شعورياً وغضب. ووضع نفسه تحت الناموس وكان مطيعاً حتى الموت. وقد تألم ومات على الصليب ودُفن في بستان. وما كان له صورة ولا جمال ننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. وكان محتقراً ومخذولا من الناس، رجل أوجاع ومختبِر الحزن (إش ٥٣،٣:٢).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ومن جهة أخرى أن هذا الإنسان نفسه كان متميزاً عن جميع البشر ومتفوقاً عليهم جميعاً. فلا يقتصر الأمر على كونه – من حيث طبيعته البشرية – قد حُبل به بالروح القدس، ولا كونه عاش كل حياته بلا خطيئة رغم أنه تجرّب في كل شيء، ولا على كونه قد قام من الموت وصعد إلى السماء، بل إن هذا الشخص نفسه وبالذات – هو الذي وضع نفسه إلى أعمق حد حتى اتّخذ صورة عبد وأطاع حتى موت الصليب – قد كان له وجود في كيان آخر قبل تجسده واتضاعه أزلاً. فقد كان موجود آنذاك في البدء، ولم يحسب كونه معادلاً لله حالة مختلسة ينبغي التمسك بها كغنيمة (في ٢:٦) وعند قيامته وصعوده إلى المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم (يو ١٧:٥). إنه بشري إذ أنه كائن منذ الأزل (يو ١:١ ؛ ١يو ١:١). وهو الألف والياء، الأول والآخر، البداية والنهاية (رؤ ٢٢:١٣). وهو حاضر في كل مكان بحيث أنه، وهو يمشي على وجه الأرض، كان على نحو متزامن في حضن الآب في السماء (يو ١:١٨ ؛ ٣:١٣)؛ وبعد تمجيده يظلّ في كنيسته ويملا الكلّ في الكلّ ؛ وهو غير متغير، إذ هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد (عب ٣:٨). وهو عليم بكل شيء، بحيث يسمع الصلوات؛ وهو العارف في قلوب الجميع (أع ١:٢٤ – ويمكن أن يكون مقصود هنا هو الآب أيضاً). وهو قدير على كل شيء، حتى إنّ كلّ شيء مُخضع له، وكل سلطان في السماء والأرض مدفوع إليه، وهو ملك الملوك أجمعين.

وفي حين يمتلك المسيح جميع هذه السجايا الإلهيّة، يشارك أيضاً في الأعمال الإلهية. فهو مع الآب والروح خالق كل شيء (يو ١:٣ ؛ كو ١٦ :١). وهو البكر والبداية ورأس الخلائق كلها (كو ١:١٥ ؛ رؤ ٣:١٤). وهو يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته، بحيث أن كل شيء ليس منه فقط بل فيه دائماً وبه أيضاً (عب ١:٣ ؛ كو ١:١٧). ثم إنه فوق ذلك هو حافظ جميع الأشياء ويصالح ويسترد، ويجمعها في كيان واحد خاضع له بوصفه الرأس. ولكونه هكذا فهو يدعى بالذات مخلص العالم. وكما أُطلق اسم المخلص أو الفادي على الله في العهد القديم، هكذا يطلق في العهد الجديد على الابن كما على الآب. ففي بعض المواضع يطلق هذا الاسم على الله، وفي مواضع أخرى على المسيح. وفي بعض الأحيان لا يتّضح هل يعود الاسم إلى الله أو إلى المسيح (تي ٢:١٣ ؛ ٢بط ١:١). إنما في المسيح وبه تمّ عمل الله الخلاصي تماماً.

يدلنا هذا كله على وحدة بين الآب والابن، بين الله والمسيح، على نحو لا يوجد مثله على الإطلاق بين الخالق والمخلوق. فمع أ، المسيح اتخذ طبيعة بشرية لها حدودها وكان لها بدءٌ في الزمان، فهو- من حيث كونه شخصاً أو ذاتاً – لا يوضع بحسب الكتاب المقدس في جانب المخلوقات بل في جانب الله. إنّه يشارك الله في فضائله وأعماله؛ وله الطبيعة الإلهية الواحدة بعينها. ويتم التعبير عن هذه النقطة الأخيرة على نحو مخصوص في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأسماء الثلاث التي يطلقها الوحي على المسيح، وهي : بهاء المجد ورسم الجوهر وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.

فالمسيح صورة الله غير المنظور بهاء مجده ورسم جوهره. ومن رآه فقد رأى الآب (يو ١٤:٩). فكل من يريد أن يعرف من هو الله، وما هو الله، عليه أن يرى المسيح. فكما هو المسيح، كذلك هو الآب. ثم إن المسيح هو كلمة الله (يو ١:١ ؛رؤ ١٩:١٣). ففيه عبر الآب التعبير الأكمل عن ذاته : عن حكمته ومشيئته وفضائله، وعن كامل كيانه. وهو قد أعطى المسيح أن تكون له حياة في ذاته (يو ٥:٢٦). وكل من يريد أن يدرك معرفة فكر الله ومشورته، ومشيئته من جهة البشرية والعالم، فليصغي إلى المسيح ويسمعه (مت ١٧:٥). والمسيح، أخيراً، هو ابن الله، أو الابن كما يصفه يوحنا غالباً دون قيد أخر سوى أداة التعريف (١يو ٢:٢٢ وما يليه ؛ عب ١:١، ٨)، الابن الواحد الوحيد، الابن الخاص الحبيب، الذي به سر الآب كل السرور. وكل من يريد أن يكون من أولاد الله،فليقبل المسيح، لأن كل الذين يقبلونه يعطون سلطاناً وحقاً أن يدعو أولاد الله (يو ١:١٢).

وأخيراً تضع كلمة الله المقدسة تاجها على شهادة الوحي هذه بأن تطلق على المسيح اسم الله أيضاً. وقد سبق توما واعترف بالمسيح قبل صعوده قائلاً : ربّي وإلهي (يو ٢٠:٢٨). ويشهد يوحنا عنه بأنه، من حيث هو الكلمة، كان عند الله في البدء، وكان هو الله. ويصرح بولس أن المسيح هو من الآباء بحسب الجسد ولكنه من حيث الجوهر هو الله الكائن على الكل مباركاً إلى الأبد (رو ٩:٥). وتفيدنا الرسالة إلى العبرانيين أن المسيح ممجد فوق الملائكة وأن الله نفسه خاطبه قائلاً : يا الله (عب ١:٨، ٩) ويتكلم بطرس عنه بوصفه إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح (٢بط ١:١). وفي تفويض المسيح لتلاميذه أمر المعمودية، كما هو مذكور في متى ٢٨:١٩، وأيضاً في البركات الرسولية، يوضع المسيح على قدم المساواة مع الآب والروح، فإن اسم اللاهوت وجوهره، وسجاياه وأعماله، تتبين في الابن (والروح) كما في الآب تماماً.

يسوع المسيح ابن الله الحي : على هذه الصخرة بنيت الكنيسة. ومنذ البداية كانت مكانة المسيح الفريدة واضحة لجميع المؤمنين. فقد اعترفوا به جميعاً بوصفه الرب الذي بتعليمه وحياته وموته وقيامته حقق الخلاص وغفران الخطايا والخلود، ومن ثم أقام الله وأجلسه إلى يمينه وسيعود عن قريب ديّاناً ليدين الأحياء والأموات. والأسماء التي تطلق عليه في رسائل الرسل، هي عينها تطلق عليه أيضاً في الكتب المسيحية الباكرة. وبهذه الأسماء يُخاطب في صلوات المؤمنين الأوائل وترنيماتهم. فقد كان الجميع مقتنعين بأنه يوجد إله واحد، وهم أولاد له ؛ وربٌّ واحد أكد لهم محبة الله ووهبهم إياها؛ وروح واحد جعلهم جميعاً يسلكون في جدّة الحياة. ومأمورية المعمودية في متى ٢٨:١٩، وقد غدا استعمالها عامّاً عند نهاية العصر الرسولي، بيّنةٌ على الإجماع في هذا الاقتناع.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولكن لما بدأ المسيحيون يفكرون في مضمون هذا الاعتراف، ظهرت أنواع شتى من الاختلاف في الرأي حوله، ولم يكن أفراد الكنيسة في وضع يمكنهم حلاً من استيعاب التعليم الرسولي بعقولهم التي سبق أن تشربت تعاليم اليهودية أو الوثنية، ولاسيما لأن معظمهم كانوا من العامة الأميين. وقد عاشوا في مجتمع نشطت فيه وشاعت فيه كل أنواع الأفكار والتيارات الفكرية، فكانوا بالتالي معرضين دائماً لكثير من التجارب ومبادئ الضلال. حتى إننا نلاحظ أنه في أثناء حياة الرسل شقّ معلمو بدع شتى طريقهم إلى داخل الكنيسة وحاولوا زعزعتها عن ثبات عقيدتها. ففي كولوسي مثلاً قام من أساؤوا تفسير شخص المسيح وعمله وحولوا الإنجيل إلى ناموس جديد (كو ٢:٣ وما يليها و١٦ وما يليها) كما قام في كورنثوس بعض دعاة التحرر الذين أساؤوا استخدام الحرية المسيحية ودعوا إلى التحرر من كل قيد (١كو ٦:١٢ ؛ ٨:١). ويسوق الرسول يوحنا في رسالته الأولى محاجّةً موجّهة لإلى قومٍ مزعومين أنبياء أنكروا أن المسيح جاء في الجسد، وبذلك طعنوا في حقيقة طبيعته البشرية (١يو ٢:١٨ وما يليه ؛٤:١ وما يليه ؛ ٥:٥ وما يليه).

وظلت الحال على هذا الموال في عصر ما بعد الرسل. وبالحقيقة أن الضلالات والبدع تزايدت. منذ القرن الثاني فما بعد، تنوعاً وقوتاً وانتشاراً. فكان هنالك من أمنوا بطبيعة المسيح البشرية الحقيقة، وبولادته المعجزية، وبقيامته وصعوده. إلا أنهم اعتبروا أن ما هو إلهي فيه لا يعدوا كونه مقداراً فائقاً من مواهب الروح وقدراته. وقد اعتقدوا أن هذه القدرات وهبت له عند معموديته لتأهيله كي يؤدي مهمته الدينية الخلقية. وتأثر إتباع هذه الحركة بفكرة التأليه الطبيعي اليهودية حول علاقة الله بالعالم. فهم لم يستطيعوا التفكير بعلاقة بين الله والعالم غير تلك القائمة على المشاركة في المواهب والقدرات. وعلى ذلك، كان المسيح عندهم شخصاً غزير المواهب حقاً وعبقرياً دينياً، إلا أنهم قالوا بأنه كان إنساناً وظل إنساناً.

غير أن آخرين ممن نشأوا على الوثنية وجدوا أنفسهم أميل بالأحرى إلى فكرة تعدد الآلهة. فقد افتكروا أنهم يستطيعون جيداً أن يدركوا أن المسيح، بحسب طبيعته الجوهرية، ينبغي أن يكون واحداً من جمهرة الكائنات الإلهية أو ربما رأس تلك الكائنات. لكنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا أنّ كائناً إلهياً صرفاً كهذا يمكن أن يكون قد اتخذ طبيعة جسدية مادية. وهكذا استبعدوا ناسوت المسيح الحقيقي وزعموا أنه جاء إلى الأرض، بصورة مؤقتة وفي المظهر فقط، إلى حدٍّ بعيد كما فعلت الملائكة غالباً بحسبما ورد في العهد القديم. هذان التياران الفكريان كلاهما، استمرّا كحركتين إلى يومنا الحاضر. فتارةً يضحى بلاهوت المسيح في سبيل ناسوته؛ وطوراً يضحى بناسوته في سبيل لاهوته. وثمة دائماً متطرفون يضحون بالجوهر في سبيل المظهر، أو بالمظهر في سبيل الجوهر. فهم لا يدركون أن بين الأمرين وحدةً وانسجاماً تاميّن.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

غير أن الكنيسة المسيحية قامت منذ البدء على أساس أخر، إذ اعترفت باتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح على النحو الأوثق والأعمق، وبالتالي على نحو فريد تماماً. وقد عبرت رجالات الكنيسة في أوائل عهدها عن هذا الحق أحياناً بطريقة تعوزها البراعة. فقد كان عليهم أن يجاهدوا، أولاً ليكوّنوا مفهوماً وضحاً إلى حدٍّ ما بشأن هذا الحق، وليعبّروا بعد ذلك المفهوم بلغة واضحة. ولن الكنيسة بالرغم من ذلك لم تسمح لنفسها، ولأجل ذلك السبب، بأن تتزحزح عن قواعدها. بل إنها بالأحرى تجنبت التطرف إلى جانب أو آخر وتمسكت بتعليم الرسل في ما يتعلق بشخص المسيح.

ولكن حين يكون الشخص الواحد نفسه مشاركاً في الطبيعة الإلهية وإنساناً بكل معنى الكلمة أيضاً، يترتب على ذلك أن يبذل جهداً ما لتعريف الحقيقة، ولتحديد دقيق لكيفية اتصال ذالك الشخص باللاهوت والعالم في آن معاً. مع كل ما بذل مثل هذا الجهد، ظهر أيضاً سبيل ضلالٍ وبدعة إلى اليمين وإلى اليسار.

بلغة أخرى، لما فُهمت وحدانية الله – وهي من حقائق المسيحية الأساسية – على نحوٍ اعتبرت معه كينونة الله محصورة في شخص الآب بصورة قاطعة جامعة مانعة، لم يبق متسع في فهم لاهوت المسيح. عندئذ دفع المسيح إلى خارج دائرة اللاهوت، ووضِع جنباً إلى جنب مع الإنسان، لأنه لا انتقال تدريجياً من الخالق إلى المخلوق. ومن ثم كان ممكناً أن يساير المرء بدعة آريوس في القول بأن المسيح في الزمان والمقام متفوّقاً على العالم أجمع، وأنه كان الأول بين الخلائق المخلوقة، وهو يفوقها مقاماً وكرامةً. على أن المسيح بموجب هذا الرأي لا يعدو كونه مخلوقاً. وعلى زعمه، كان وقت لم يكن المسيح فيه، ثم كان وقت أُوجده الله فيه، شأنه شأن سائر الخلائق.

على أنه من السهل، في معرض التمسك بوحدانية الله مع منح شخص المسيح ما يستحقه من إكرام، أن يقع المرء في ضلالة أخرى، هي تلك المنسوبة إلى داعيتها الأول سابليوس. ففيما حصر آريوس كينونة الله في أُقنوم الآب، إذا جاز التعبير، ضحّى سابليوس بالأقانيم الثلاث كلها في سبيل كينونة الله. فبحسب تعليمه أن الأقانيم الثلاث، الآب والابن والروح، ليست حقائق أزلية تحتوي عليها كينونة الله، بل هي صور وتجليات بها يعلن الكائن الإلهي الواحد نفسه على مر العصور المتوالية، أي في العهد القديم، ثم في فترة إقامة المسيح على الأرض، ثم بعد يوم الخمسين. وقد كان لكلتا البدعتين مؤيدوهما على مر العصور. فاللاهوت الفرونجي كما يسمى، مثلاً، جدد تعليم آريوس؛ واللاهوت العصري سار أولاً في طريق سابليوس.

وقد اقتضى الأمر كثيراً من الصلاة والجهاد من قِبل الكنيسة لتسلك سبيل الصواب وسط مثل هذه الضلالات كلها، ولاسيما لأن كلاً منها تبدلت وامتزجت بأنواع شتى من

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الاختلافات والتحويرات. غير أن الكنيسة ظلت أمينة لتعليم الرسل، بقيادة رجال عظام تميزوا بتقواهم ورجاجة عقولهم، فدعوا بالحق آباء الكنيسة. وفي مجمع نيقية عام ٣٢٥م اعترفت الكنيسة بإيمانهم بالإله الواحد : بالآب الضابط الكل الخالق لكل شيء، ما يُرى وما يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح، ابن الله، الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، به كان كل شيء على السماء وعلى الأرض...

ومع أن قانون الإيمان النيقوي هذا كان بالغ الأهمية، فهو لم يضع حداً للمنازعات العقائدية قط؛ بل على العكس أفسح في المجال أمام أسئلة جديدة وأجوبة مختلفة. فإنه وإن حدّدت الآن علاقة المسيح بكينونة الله وبعالم البشر، بالإشارة إلى أنه في شخصه مشارك في الاثنين و'نه إله وإنسان بالحق في ذات شخصه، ما كان ليهدأ السؤال عن كيفية تلك العلاقة بين هاتين الطبيعتين في شخص المسيح الواحد. وجواباً على هذا السؤال أيضاً، ذهب الناس مذاهب شتى.

فقد ارتأى نسطوريوس أنه إن كان للمسيح طبيعتان، فينبغي أن يكون فيه أيضاً شخصان، أو ذاتان، ولا يمكن توحيدهما إلا برباط معنوي كذلك الذي يحصل في زواج رجل بامرأة. وذهب أوطيخس، منطلقاً من تحديد مماثل للشخص والطبيعة، إلى أنه إن كان في المسيح أقنوم أو شخص واحد، أو ذات واحدة، فإن الطبيعتين ينبغي أن تكونا ممتزجتين ومنصهرتين بحيث تنتج منهما طبيعة واحدة فقط هي طبيعة إلهية إنسانية. وهكذا أكد نسطوريوس تمايز الطبيعتين على حساب وحدة الشخص أما أوطيخس فأكد وحدة الشخص على حساب ثنائية الطبيعة.

ولكن بعد نزاع عنيف ومرير، تجاوزت الكنيسة هذه الخلافات ففي مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م نصّت على أن شخص المسيح الواحد فيه طبيعتان، غير متغيرتين ولا ممتزجتين ٠ضد أوطيخس)، وغير منفصلتين ولا منقسمتين (ضد نسطوريوس)، وأن هاتين الطبيعتين تواجدتا جنباً إلى جنب، وحصل بينهما اتحاد في الشخص الواحد. وبهذا القرار الذي ناله في ما بعد توسيع وإكمال في مجمع القسطنطينية عام ٦٨٠م، بخصوص نقطة واحدة محددة، حسم النزاع الذي دام قروناً حول شخص المسيح. وخلال هذه النزاعات حافظت الكنيسة على جوهر المسيحية، وطبيعة الدين المسيحي المطلقة، كما حافظت أيضاً على استقلالها.

****

من البديهي حقاً أن إقراريّ كل من نيقة وخلقيدونية لا يرقى إلى حد العصمة.
فالمصطلحات التي تستخدمها الكنيسة لاهوتية في هذا الباب، كالشخص أو الأقنوم والطبيعة ووحدة الجوهر وما إلى ذلك،، ليست نقلاً من الكتاب المقدس، بل هي حصيلة التفكير الذي

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

كان على المسيحية أن توليه تدريجياً لسر الخلاص هذا. وقد اضطرت الكنيسة إلى التعمق والتفكير بهذا الموضوع من جرّاء البدع التي لاحت من جهة،سواء داخل الكنيسة أو خارجها. لا يقصد بها أن تفسر السر الذي يوجهها في هذه المسألة، بل بالأحرى أن تحافظ على نقائه وقدسيته في وجوه الذين يسعون إلى إضعافه أو ‘إنكاره. فليس تجسد الكلمة معضلة ينبغي أن نحلها، أو نستطيع أن نحلها، بل هو بالأحرى حقيقة معجزية نعترف بها شاكرين كما يقدها لنا الله في كلمته.

ولكن الإقرار الذي رسخته الكنيسة في نيقية وخلقيدونية، منظور إليها من هذه الزاوية، فهو ذو قيمة عظيمة. فقد ظهر كثيرون، ومازال حتى الآن كثيرون، ممن ينظرون بازدراء إلى عقيدة الطبيعتين، وهم ينظرون إليها بتشامخ، ويحاولون أن يُحلّوا محلها كلمات وتعبير مختلفة. وقد انطلق هؤلاء من القول : أي فرق يحدثه إقرارنا بهذه العقيدة أو عدمه؟ ما يهم أن لنا شخص المسيح المرتفع ممجداً وسامياً يفوق هذا الاعتراف غير الملائم. ولكن هؤلاء أنفسهم ما يلبثون أن يبدأوا يأتون بكلمات وتعابير يصفون بها شخص المسيح الذي يقبلونه. فلا أحد يمنه أن يتجنب هذا الوضع، لأننا لا نستطيع أن ندّعي امتلاك ما لا نعرفه، فإن كنا نؤمن أن لنا المسيح، وأن لنا شركة معه، وأننا له، فلا بد إذاً من أن نعترف بهذا الإيمان بأفواهنا ونعبر عنه بكلمات وألفاظ وتعابير وأوصاف مختلفة. ثم إن التاريخ يخبرنا أن ألفاظ مهاجمي عقيدة الطبيعتين هي إلى أبعد حد أقل قيمة وقوة، وأنهم غالباً ما يتورطون فعلاً في الإساءة إلى التجسد كما يقدّه لنا الوحي الإلهي.

وفي أيامنا مثلاً كثيرون ممن يعتقدون أن عقيدة الطبيعتين هي عبارة عن منتهى اللاعقلانية، ويكوّنون في أذهانهم صورة لشخص المسيح مختلفة تماماً. فهم لا يستطيعون أن ينكروا أن في المسيح ما يميزه عن سائر البشر ويرفعه إلى مقام أسمى منهم جميعاً. غير أنهم لا يعتبرون هذا العنصر الإلهي الذي يميزونه في المسيح مشاركة في الطبيعة الإلهية ذاتها، بل قدرة إلهية أو قوة حصل عليها المسيح بدرجة متفوقة على نحوٍ ممتاز. وعليه، فهم يميلون إلى القول أن للمسيح جانبين، واحد إلهي وآخر بشري؛ أو إنه يمكن النظر إليه من وجهتي نظر اثنتين، أو إنه عاش في حالتين متعاقبتين، هما حالة الاتضاع ثم حالة الارتفاع، أو إنه – مع كونه إنساناً – فبكرازته بكلمة الله وتأسيس ملكوت الله صار الوسيلة الفائقة والكاملة لإعلان الله، ولذلك استحق عندنا مقام الله. غير أنّ أيّ قارئ غير متحيز لا بد أن يرى أن هذه التعبيرات ليست فقط تعديلات كثيرة للغة الكنيسة، بل أنها أيضاً تجعل شخص المسيح شيئاً آخر غير الذي اعترفت به الكنيسة على مر العصور بناءً على شهادة الرسل.

فوق ذلك بأن المواهب والقدرات الإلهية تُعطى، بمعنى من المعاني، لكلٍّ واحد، لأن كل عطية صالحة وموهبة كاملة هي نازلة من فوق، من عند أبي الأنوار (يع ١:١٧). حتى إن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المواهب غير العادية، كتلك التي كانت من نصيب الأنبياء مثلاً، لا ترفع هؤلاء الأنبياء فوق مستوى الكائنات البشرية. فالأنبياء والرسل كانوا أُناساً تحت الآلام مثلنا. فأن كان المسيح لم يحصل إلا على مواهب خارقة وقدرات فائقة فقط، فهو لا يعدوا كونه كائناً بشرياً، زمن ثم لا يعقل أن يكون شيء مثل تجسد الكلمة قد حدث فيه. ولكنه عندئذ لا يمكن، على ما يذهب إليه قومٌ، أيعادل الله بفضل قيامته وصعوده، ولا أن تكون له – على ما يقولون – مقام الله أو قدره عندنا. ذلك أن الفاصل بين الله والإنسان ليس تبايناً تدريجياً بل هوّة عميقة. فههنا علاقة خالق بمخلوق، والمخلوق – بطبيعة كيانه – لا يمكن أن يصير خالقاً البتّة، كما لا يمكن أن تكون له عندنا – نحن الخلائق البشرية – مكانة الخالق أو مقامه، في حين أن اتكالنا هو اتكال كليّ مطلق.

لذلك يجدر بنا أن نلاحظ أن بعض أبناء الجيل، بعد أن قارنوا جميع هذه المزاعم الجديدة في ما يتعلق بشخص المسيح بتعليم الكنيسة الذي هو تعليم الكلمة المقدسة، وقد توصّلوا إلى هذه النتيجة الخالصة : أن عقيدة الكنيسة – في نهاية المطاف – تُنصف عقيدة الكلمة المقدسة خير إنصاف. فالتعليم بأن المسيح ذو طبيعتين فعظيم هو سر التقوى، ليس حصيلة الفلسفة الوثنية، بل مؤسّس على شهادة الرسل.

فهذا هو يقينية سر الخلاص : أن ذاك الذي كان في البدء عند الله وكان هو الله (يو ١:١)، الكائن في صورة الله لكن لم يحسب كونه معادلاً لله حالة مختلسة أو غنيمة ينبغي التمسك بها (في ٢:٦)، الذي هو بهاء مجد الله ورسم جوهره (عب ١:٣)، في ملء الزمان صار بشرياً (يو ١:١٤) وولد من امرأة (غل ٤:٤) ووضع نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس (في ٢:٧).

****

كان المسيح الله، هو الله، وسيظل هو الله إلى الأبد. ليس هو الآب، ولا الروح، بل الابن الوحيد الحبيب عند الآب، ليس هو الكائن الإلهي، بل هو أقنوم الابن. ولما صار في الهيئة كإنسان، وجال على الأرض كإنسان، بل أيضا لما تألم في جيثسيماني وعُلّق على صليب الجلجثة، ظل هو ابن الله الحبيب الذي به سرّ الآب كل سرور. حقاً بالتأكيد ما يقوله الرسول، أن المسيح أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس (في ٢:٦، ٧). إلا أنه من الخطأ أن يفهم من هذا، كما يحلو لبعضهم، أن المسيح في تجسّده، أي في حالة اتضاعه، جرّد نفسه من لاهوته كلياً أو جزئياً، فوضع جانباً سجاياه الإلهية ثم عاد فاتخذ تدريجياً في حالة ارتفاعه أو تمجيده. ولكن كيف يمكن أن يحصل ذلك ما دام الله لا يقدر أن ينكر نفسه (٢تي ٢:١٣) وهو المنزه عن كل صيرورة وتحول بوصفه الصّمد غير المتغير؟ كلا، فإنه لما صار ما عليه، ظل أيضاً على ما كان عليه أي ابن الآب الوحيد.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وهذا واقع ما يعنيه الرسول بقوله إن المسيح أخلى نفسه : أنه وهو في صورة الله اتخذ هيئة إنسان وصورة عبد. وفي وسعنا أن نعبر عن هذا بكلام بشري بسيط على النحو التالي : إن المسيح كان قبل التجسد مساوياً للآب لا في الجوهر والسجايا فقط بل كانت له أيضاً صورة الله. كان يشبه الله تماماً، إذ هو بهاء مجده ورسم جوهره. ولو استطاع أحد أن يراه، لكان رأى فيه الله حلاً. ولكن هذا تغير عند تجسده. فهو اتخذ عندئذ هيئة إنسان وصورة العبد. ومن كان ينظر إليه وقتئذ لا يقدر أن يرى فيه الابن الوحيد عند الآب، إلا بعين الإيمان. فهو قد وضع جانباً صورته الإلهية وبهائه، وحجب طبيعته الإلهية خلف صورة العبد. وعلى الأرض كان كواحد منا وشبيهاً لنا.

لذلك يتضمن التجسيد أيضاً من الناحية الأخرى أن ذاك الذي ظل على ما كان، في الجسد. وقد صار هكذا عند نقطة من الزمن، في لحظة من التاريخ محددة، ساعة حل الروح القدس على مريم وظلّلتها قوة العليّ (لو ١:٣٥) علماً بأن التجسد أعد له عبر الأجيال.

فإذا أردنا أن نفهم التجسد فهماً صحيحاً فإننا، نستطيع القول إن وجود الابن الأزلّ وخلق العالم كانا إعداداً لتجسيد الكلمة. وهذا لا يعني القول إطلاقا أن وجود الابن الأزليّ والخلق يحويان التجسد. إذ أن الكلمة المقدسة تربط دائماً تجسد الابن بالفداء من الخطية وإتمام الخلاص. ولكن وجود الابن الأزليّ والخلق، ولاسيما الإنسان على صورة الله، يبينان كلاهما أن مشاركة الله ممكنة، داخل الكينونة الإلهية بمعنىً مطلق، وخارجها بمعنىً نسبي. ولو لم يكن ذلك كذلك، لما كان ممكناً قط أن يتجسد الله. فكل من يعتقد أن تجسد الله مستحيل من حيث المبدأ، يُنكر أيضاً خلق العالم وتولّد الابن. وكل من يعترف بالخلق والتولد لا يمكن أن يكون له اعتراضٌ مبدئي على تجسد الله في طبيعة بشرية.

وقد تمّ الإعداد – على نحو أكثر مباشرة – لتجسد الكلمة، في الإعلان الذي تم بعد السقوط تواً، واستمر في تاريخ شعب العهد القديم، وبلغ ذروته في بركة مريم. فالعهد القديم هو تقارب مستمر من قبل الله نحو الإنسان، بالنظر إلى اتخاذ إياه مسكناً دائماً يحلّ فيه عند ملء الزمان.

ولما كان ابن الله الذي اتخذ طبيعة بشرية في مريم موجوداً قبل ذلك الزمان ومنذ الأزل باعتباره أقنوم الابن، فإن الحبل به في أحشاء مريم لم يحدث بمشيئة جسد ولا بمشيئة رجل، بل بتظليل الروح القدس لها. صحيح أن التجسد مرتبط بالإعلان الذي سبقه ومتمم له، غير أنه ليس بحد ذاته حصيلة للطبيعة أو البشرية. إنه عمل من أعمال الله وإعلانٌ منه، بل الإعلان الأسمى. وكما أن الآب أرسل الابن إلى العالم، والروح القدس ظلّل مريم، كذلك تماماً اشترك الابن نفسه معنا في اللحم والدم (عب ٢:١٤). فقد كان التجسد عمل الابن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الخاص، إذ أنه لم يكن غير عاملٍ فيه. فهو صار جسداً بملء إرادته وبعمله الخاص. ومن هنا يستبعد مشيئة الرجل، ويعد لنفسه طبيعة بشرية في أحشاء مريم بتظليل الروح القدس.

تلك الطبيعة البشرية لم يكن لها وجود سابق. فهي لم يؤتَ بها مع المسيح من السماء لتحبل بها مريم من الخارج – إذا جاز التعبير –وتنقلها من خلال جسدها. ويعلم معيدو العماد بهذا تشديداً منهم على تنزه طبيعة المسيح البشرية عن الخطيئة. غير أنهم إذ يقفون هذا الموقف يسيرون على خطى الغنوصية أو الأدرية القديمة، وينطلقون من الاعتقاد أن الجسد والمادة هما شرٌ في ذاتهما. إلا أن الكلمة المقدسة، في التجسد، تؤكد أيضاً جودة الخلق ومصدر المادة الإلهي.

إن المسيح اتخذ طبيعته البشرية من مريم. وبحسب الجسد، هو من نسل داود ومن الآباء. ولذلك فهذه الطبيعة فيه هي طبيعة بشرية كاملة، مثلنا في كل شيء ما خلا الخطيئة. فما من شيء بشري كان غريباً على المسيح. ونكران مجيء المسيح في الجسد هو منطلق ضد المسيح (١يو ٢:٢٢).

وكما أن طبيعة المسيح البشرية لم تكن موجودة قبل الحبل في مريم، فهي كذلك لم تكن موجودة قبل ذلك بزمن، ولا بعده في زمن، في حالة انفصال عن المسيح. فالجنين الذي حبل به في مريم، ثم الطفل الذي ولد منها، لم ينمُ أولاً على نحو مستقل ليصبح إنساناً أو ذاتاً كي يتخذ المسيح من ثم ويتحد به. هذه البدعة أيضاً كان لها مناصروها في الأزمنة المبكرة والمتأخرة؛ غير أن الكتاب المقدس لا يقرأ شيئاً منها. فذلك القدوس الذي حُبل به في أحشاء مريم كان من البداية ابن الله، وقد أطلق عليه هذا الاسم منذ البداية (لو ١:٣٥). إذ إنّ الكلمة لم يتحد فيما بعد بكائن بشري صار هو إيّاه،بل إنه صار جسداً (يو ١:١٤). ولذلك لم تقل الكنيسة المسيحية في اعترافها إنّ أقنوم الابن قد اتخذ شخصية بشرية بل بالأحرى طبيعة بشرية. فبهذه الطريقة وحدها يمكن الإبقاء على ثنائية الطبيعة ووحدة الشخص.

وآخر نقطة تستدعي انتباهنا في هذه المسألة، هي أن الكتاب المقدس يقد لنا دائماً شخصاً واحداً في المسيح، وإن كان ينص بأوضح ما يمكن على أن المسيح كان هو الكلمة وأنه صار جسداً، وأنه بحسب الجسد جاء من الآباء ولكنه من حيث الجوهر هو الله الكائن على الكل مباركاً إلى الأبد. فالولد الذي ولد يدعى الله القدير والآب الأبدي (إش ٩:٦). وابن داود هو في الوقت عينه رب داود. والذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السماوات (أف ٤:١٠). ومن هو من الآباء حسب الجسد، هو من حيث الجوهر الله الكائن على الكل مباركاً إلى الأبد (رو ٩:٥). وبينما هو يجول على الأرض، كان مع ذلك في السماء، وظل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فيها، في حضن الآب (يو ١:١٨ ؛ ٣:١٣). ومع أنه ولد في الزمان، وعاش في الزمان، فهو رغم ذلك كائن قبل إبراهيم (يو ٨:٥٨). وفيه يحل ملء اللاهوت جسدياً(كو ٢:٩).

و بالاختصار، تعزى إلى الشخص الواحد بعينه سجايا وأعمال إلهية وإنسانية، كما ينسب إليه الأزل والزمن، والحضور في كل مكان والمحدودية، والقدرة الخالقة لكل شيء والضعف الذي تتميز به المخلوقات. ولما كان هذا هو الواقع، فإن اتحاد الطبيعتين في المسيح لا يمكن أن يكون اتحاد شخصين. صحيح أن شخصين ما قد يتحدان أحدهما بالآخر عن طريق المحبة، ولكن لا يمكن البتة أن يصيرا شخصاً واحداً أو ذاتاً واحدة. وبالحقيقة أن المحبة تقتضي مشاركة شخصين وينتج منها وحدة أدبية معنوية وحسب. ولو كان اتحاد ابن الله بالطبيعة البشرية من هذا النوع، لكان يمكن في أفضل الحالات تمييزه – في الدرجة لكن ليس في النوعية- من تلك العلاقة التي تجمع بين الله وخليقته، ولاسيما أولاده. غير أن المسيح يحتل مكانة فريدة. فهو لم يتحد بالإنسان بطريقة معنوية، ولا اتخذ كائناً بشرياً موجوداً كشريك له، بل أعدّ لنفسه طبيعة بشرية في أحشاء مريم، وصار كائناً بشرياً وعبداً. فكما يقدر الكائن البشري أن ينمو من إحدى مراحل الحياة إلى سواها، ويستطيع أن يعيش ضمن دائرتين من دوائر الحياة في الوقت نفسه أو على التوالي، فكذلك تماماً – وبالمشابهة – جال المسيح على الأرض في صورة عبد وهو الكائن في صورة الله. ولم يكن الاتحاد الذي نتج من تجسده اتحاداً معنوياً بين شخصين، بل اتحاد طبيعتين في الشخص الواحد بعينه. فالرجل والمرأة، مهما كانا متحدين بالمحبة، يظلان شخصين اثنين. والله والإنسان، وإن اتحد بأوثق عرى المحبة، يبقيان مختلفين في الجوهر. ولكن المسيح الإنسان هو بعينه الكلمة الذي كان في البدء عند الله وكان هو الله. فاتحاد الله هذا بالإنسان هو أمر فريد لا مثيل له ولا يُسبر غوره. وبداية كل حكمة ونهايتها أن الكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً (يو ١:١٤).

وهكذا تعزى إلى المسيح، في وحدة شخصه مع اتحاد الطبيعتين فيه. جميع الصفات والقدرات ذات الصلة بهما. وقد حاول بعضهم أن يطلعوا باتحاد للطبيعتين أقوى وأوثق إذ قالوا بأن هاتين الطبيعتين، عند التجسد مباشرةً، انصهرتا في طبيعة واحدة إلهية إنسانية، أو أن الطبيعة الإلهية جردت نفسها من خصائصها وتنازلت إلى حدود الطبيعة البشرية، أو بأن الطبيعة البشرية فقدت ميزاتها وتلقت مميزات الطبيعة الإلهية (سواءٌ كان كلها، أو بعضها – مثل الحضور في كل مكان والقدرة على كل شيء والعلم بكل شيء وقوة الأحياء). إلا أن إقرار الإيمان لدى الكنيسة المصلحة طالما رفض وقاوم فكرة انصهار الطبيعتين في طبيعة واحدة، شأنها شأن القول بانتقال خصائص الطبيعة الواحدة إلى الأخرى. وإن هذا الرأي في الطبيعتين قد أفضى إلى مزجهما وخلطهما، وبالتالي إنكار

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفرق في الجوهر بين الله والإنسان، والخالق والمخلوق، وذلك على نحو يوافق القول بوحدة الوجود.

صحيح أنّ بين الطبيعتين وخصائصهما وقدرتهما علاقة وثيقة. غير أنها علاقة تبرز إلى الوجود في وحدة الشخص. ولا يمكن تصور اتحاد أقوى وأوثق. كما أن النفس والجسد- على سبيل المقارنة لا المساواة بينهما – متحدان في شخص واحد ومع ذلك يظلان متميزين أحدهما عن الآخر من حيث الجوهر والخصائص، فكذلك حال المسيح حيث الشخص الواحد هو موضوع كلتا الطبيعتين. وتمايز النفس والجسد افتراض وشرط للاتحاد الداخلي بين الاثنين في الكائن البشري الواحد بعينه. كذلك أيضاً تمايز الطبيعتين الإلهية والإنسانية شرط وأساس لاتحادهما في المسيح. أما انصهار الطبيعتين في طبيعة واحدة، وانتقال الخصائص من طبيعة إلى أخرى، فلا يوطدان علاقة أوثق بل يؤديان إلى امتزاج أو اندماج، ويضعفان بالحقيقة الملء الذي في المسيح. فهما ينقصان إما من الطبيعة الإلهية وإما من الطبيعة البشرية أو كلتيهما معاً، ويضعفان كلمة الوحي القائلة أنه فيه-أي في المسيح-يحل ملء اللاهوت جسدياً(كو ٢:٩ ؛ ١:١٩). ولا يحافظ على ذلك الملء إلا إذا كانت الطبيعتان متميزتين إحداهما عن الأخرى، وغير ناقلتين خصائصهما ومزاياهما بعضهما إلى بعض، بل بالأحرى واضعتين إياها في خدمة الشخص الواحد.و هكذا هو المسيح الواحد الغني دائماً؛ من يستقطب في اتضاعه وارتفاعه الخصائص والقدرات العائدة لكلتا الطبيعتين وهو الذي يستطيع بهذه الوسيلة على وجه التحديد أن يجري تلك الأعمال التي تتميز- بوصفها أعمال الوسيط- عن أعمال الله من جهة، وعن أعمال الإنسان من جهة، تلك الأعمال التي تحتل مكاناً فريداً في تاريخ العلم.

بعقيدة الطبيعتين هذه يتسنى لنا أن نرى كل م ما تقوله كلمة الله المقدسة عن شخص المسيح وكل ما تعزو إليه إنما هو في مكانه الصحيح. فمن جهة يتبين أن المسيح كان ويبقى ابن الله الوحيد والأزلي الذي – مع الآب والروح – قد صنع كل الأشياء وهو حامل لها ومسيطر عليها، والذي له أن يظل بالتالي غرض سجودنا. وقد كان هو غرض السجود أيضاً في أيام الرسل، كما كان آنذاك ومازال الآن غرض الإيمان وموضع الثقة لجميع أتباعه. ولكن لا يمكن أن يكون هكذا ما لم يكن هو الله حقاً، لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد (مت ٤:١٠). فلا يعقل أن يكون أساس التعبد للمسيح شيئاًُ آخر سوى طبيعته الإلهية، حتى إن من ينكر هذه ويبقى على عبادة المسيح يأثم بتأليه المخلوق وبالوثنية. فليس لاهوت المسيح عقيدة مجردة بل هو أمر مهم للغاية بالنسبة إلى حياة الكنيسة.

ومن جهة أخرى نرى أن المسيح صار إنساناً حقاً وإنساناً متكاملاً، مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية. فقد صار طفلاً فولد فشاباً فرجلاً، وقد نما في الحكمة والنعمة عند الله والناس

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

(لو ٢:٤٠، ٥٢). وهذا كله ليس مجرد مظهر ووهم – كما يُضطر أن يقول ألئك الذين يزعمون أن الخصائص الإلهية تنتمي إلى الطبيعة البشرية – بل هو الحق كل الحق. فقد خبر المسيح تقدماً تدريجياً أو نمواً مطرداً، في الجسد وفي قوى النفس وفي النعمة عند الله والناس. وهو لم يعطي مواهب الروح دفعة واحدة، بل على التوالي وبمقدارٍ متزايدٍ دائماً فكان ثمة أشياء ينبغي أن يتعلمها ولم يكن يعرفها بادئ بدء (مر ١٣:٣٢ ؛ أع ١:٧). ومع أنه كان يمتلك كياناً لا يمكن أن يخطئ، فقد كان عنده – بسبب طبيعته الإنسانية الضعيفة – احتمال بأن يجرب ويتألم ويموت. وطوال إقامته على الأرض لم يكن بطبيعته الإنسانية في السماء، ومن هنا فهو أيضاً لم يحي بالعيان بل بالإيمان. وقد جاهد وتألم، وفي ذلك كله تمسك بكلمة الله ووعده بكل ثبات. وهكذا تعلّم الطاعة مما تألم به، مقيماً دائماً على الطاعة، وبذلك قدّس ذاته. وفي هذا ترك لنا مثالاً، وفي الوقت عينه صار مصدر خلاص أبدي لجميع الذين يطيعونه (عب ٥:٩).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الثالث

عمل المسيح في اتضاعه

إن التجسد الإلهي هو بداية ومقدمة لعمل المسيح على الأرض. هذا حق ولكنه لا يتضمن كامل معنى هذا العمل، وحري بنا أن نحاول إدراك فهم صحيح لهذا الأمر وتكوين فكرة صائبة عنه، لأن قوماً يعتقدون أن اتخاذ الطبيعة الإنسانية بحد ذاته يكمل إلى التمام المصالحة والاتحاد بين الله والإنسان. فانطلاقاً من الفكرة القائلة بأن الدين هو ذاك النوع من الشركة بين الله والإنسان حيث يحتاج كل منهما إلى الأخر، ويجادلون بأن هذه الشركة التي فصمت الخطية عراها، أو أنها غير المتاحة للإنسان على المستوى الحسي الأدنى، قد تم التعبير عنها وتحققت لأول مرة في التاريخ على يد المسيح. ومن ثم فإن فرادة المسيحية قائمة في حقيقة كون الدين المنغرسة في الطبيعة البشرية، كغريزة ونواة، قد أحرزت تحقيقها في شخص المسيح.

حقاً إنه لشرف عظيم للبشرية أن يكون ابن الله الوحيد، الكائن في صورة الله وفي حضن الآب، وقد اتخذ هيئة إنسان. إذ بهذا الأمر أصبح المسيح مرتبطاً بجميع البشر في اللحم والدم، وصارت له مشاركة معهم في النفس والجسد، والعقل والقلب، والذهن والإرادة، والأفكار والمشاعر. والمسيح، بهذا المعنى الطبيعي، هو أخ لنا جميعاً، لحمٌ من لحمنا وعظم من عظامنا. غير أن هذا الشبه الطبيعي والمادي، بالرغم من أهميته، لا ينبغي أن يتشابه الشركة الروحية الأدبية ولا أن يتدانى بها. فعلينا أن نذكر أنه بين الناس أيضاً يمكن أن يكون أفراد الأسرة الواحدة، والأقرباء عصباً؛ متباعدين بعضهم عن بعض جداً من الناحية الروحية، بل مناقضين تماماً أحدهما للآخر أيضاً. وقد قال المسيح نفسه أنه جاء إلى الأرض ليُفرق الإنسان عن أبيه. والابنة عن أمها، والكنة عن حماتها، وإن أعداء الإنسان أهل بيته (متى ١٠:٣٥، ٣٦). فالنسب الطبيعي من سلالة ما لا يفيدنا شيئاً في العلاقة الروحية. وغالباً ما تكون قرابة الدم وشركة الروح على طرفي نقيض.

وعليه، فلو لم يعمل المسيح شيئاً سوى اتخاذ الطبيعة الإنسانية، معبراً بذلك عن اتحاد الله بالإنسان، لكان خارج نطاق إدراكنا تماماً كيف يمكن أن ندخل في شركة معه ونتصالح مع الله. بالأحرى – باتخاذ طبيعة بشرية منزهة عن الخطية وبعيشه في شركة مع الله غير منفصلة – أحدث بيننا مزيد من التباعد بجعلنا نتردى في هوّة شعورنا باليأس والعجز، مادمنا نحن الخلائق الضعفاء الخطاة لا نستطيع البتة أن نقتدي بمثاله الرفيع بأيّة حال. وعليه فإن تجسد ابن الله، دون أي شيء آخر بعده، لا يمكن أن يكون هو عمل المصالحة والفداء. ذالك أنه بداءة هذا العمل، والإعداد له، واستهلاله، لكنه ليس هو ذاك العمل بعينه.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فإنه لو كان التجسد بحد ذاته قد أتّم المصالحة مع الله واتحاد الله والإنسان، لما كان من داعي لأن يعيش الربّ يسوع وعلى الأخص لأن يموت. إذاً لكان يكفي، سواء من طريق الحبل والولادة أو عن أي طريق آخر، أن يتخذ المسيح طبيعة إنسانية، وأن يجول على الأرض زماناً يسير، ثم يعود إلى السماء؛ ولما كان الحاجة إلى اتضاع المسيح الكامل والعميق.

غير أن الكلمة المقدسة تُعلّمنا شيئاً مختلفاً تماماً. فهي تخبرنا أن ابن الله لم يصر إنساناً فقط فشابهنا في كل شيء ما خلا الخطية، بل أنه أيضاً اتخذ صورة العبد، ووضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب (فيلبي ٢:٧، ٨). وكان يليق به أن يتمّم كلّ برّ (مت ٣:١٥)، وأن يكمل بالآلام (عب ٢:١٠). ولم يكن ذلك لائقاً ومناسباً فقط، بل كان يجب أن يكون. فمكتوب أنه ينبغي أن يتألم المسيح ويموت وفي اليوم الثلاث يقوم من بين الأموات (لو ٢٤:٤٦ ؛ ١كو ١٥:٣ – ٥). وقد أرسله الآب ليتمم عمله على الأرض (يو ٤:٣٤)، بل أعطاه وصية بأن يبذل حياته ثم يستعيدها (يو ١٠:١٨). ولذلك كان كل ما اختبره المسيح تنفيذاً لكل ما سبقت يد الله ومشورته فعيّنتا أن يكون (أع ٢:٢٣ ؛ ٤:٢٨). وعلى الصليب استطاع المسيح أن يقول أول مرة إن كل شيء قد أُكمل وإنه أتمّ كل ما أعطاه الآب ليعمله (يو ١٧:٤ ؛ ١٩:٤٠). ومع أن الأناجيل تصف باختصار نسبي حياة الربّ يسوع، فإنها تروي بالتفصيل خبر آلامه وموته. وهكذا أيضاً قلما تعود الكرازة الرسولية إلى الحبل بيسوع وولادته، فيما تشدد كل التشديد على صلب المسيح وموته ودمه. ونحن مُصالحون مع الله لا بولادة ابنه بل بموته ٥رو ٥:١٠).

بفضل نظرة الكلمة المقدسة هذه يضفى على حياة المسيح بكاملها أهمية فريدة وقيمة فائقة بالنسبة إلينا. فالعمل الذي أعطاه الآب ليعمله هو عمل كامل وتام، يمكن النظر إليه من عدة جهات ومقاربته من جوانب شتى؛ وعلى هذا النحو ينبغي لنا أن ننظر إليه ونقاربه ‘ذا شئنا الإطلاع الوافي على مضمونه ومداه. إنما لا ينبغي علينا ألبا ننسى البتة أنه عمل واحد. فهو يشمل ويشغل حياة المسيح كلها، من الحبل به على موته على الصليب. وكما أن شخص المسيح واحد على تباين طبيعتيه، فكذلك عمله أيضاً هو واحد. إنه بالدرجة الأولى عمل الله على الأرض. فبالنظر إلى الماضي، هو عمل مرتبط بمشورة الله وعمله السابق، مع ما تضمنه من إعلان لبني إسرائيل وهداية للشعوب. وبالنظر إلى المستقبل، ما يزال العمل مستمر على صورة معدلة في ما يقوم به المسيح حتى الآن في ارتفاعه. فهو عمل نقطته المركزية في الزمن على هذه الأرض، لكنه طالع من الأزل حيث جذوره، وممتدة إلى الأبدية.

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

منذ أقدم الأزمنة كان عمل المسيح هذا الواحد متضمناً في عقيدة الوظائف الثلاث. وبفضل كالفن على الخصوص تيسر هذا الأسلوب في معالجة عمل المسيح أن يشق طريقه إلى عقيدة الخلاص. على أنه قد أُثير عليه اعتراض تلو الآخر، ولاسيما لأن هذا الرأي قد دُفع إلى أقصى حدوده بحيث قيل أن الوظائف الثلاث في حياة المسيح ينبغي ألا تميز إحداها من الأخرى وإن نشاطاتها متداخلة. إلا أن هذه النظرة يمكن أن تثار ضد إساءة فهم الوظائف الثلاث، وليس ضد هذا التصنيف بالذات.

إذ قيل أن المسيح شغل هذه الوظائف الثلاث، أي النبوة والكهنوت والملك، كما لو كانت الواحدة منها إلى جانب الأخرى على نحو مستقل، أو إنه شغل واحدة بعد الأخرى على التوالي، فتصنيف كهذا يجزئ عمل المسيح إنما هو مغلوط فعلاً. صحيح أن وظيفة من وظائف المسيح هذه تبرز إلى المقدمة حيناً، ثم تبرز الأخرى حيناً آخر، ولكنه كان في كل زمان ومكان منهكاً في جميع الوظائف الثلاث معاً. ولا عبرة لما يقال مثلاً من أن خدمته العلنية تذكر بوظيفته النبوية، كما تذكر آلامه وموته بوظيفته الكهنوتية، وارتفاعه إلى يمين الآب بوظيفته الملكية. فإنه لما تكلم أعلن كلمة الله بوصفه نبياً، لكنه في الوقت نفسه أظهر رحمته الكهنوتية وقدرته الملكية، لأنه بكلمته شفى المرضى وغفر الخطايا وهدأ العاصفة. وقد كان هو ملك الحق. فكانت عجائبه آيات على إرساليته الإلهية وصدق كلامه، لكنها كانت في الوقت نفسه إعلاناً لعطفه على الذين يقاسون كل أنواع العناء، ولسلطان على المرض والموت وقوة الشيطان. وكان موته وضع الختم على حياته، لكنه أيضاً كان قربان طاعة كاملة – وفعل إرادة ذا سلطان – في تقديم الحياة وبعبارة موجزة، فإن لظهور المسيح وكلمته وعمله كلها خصائص نبوية وكهنوتية وملكية في وقت واحد.

أما وقد رأينا هذه الحقيقة في الطليعة ينبغي لنا أن نتقدم للنظر في شخص المسيح وعمله من زاوية كل واحدة من هذه الوظائف الثلاث. فلهذه الطريقة حسنات تفوتنا إذا انتهجنا سواها.

ففي المقام الأول، تُشدد هذه المعالجة على الحقيقة الكامنة في كون مجيء المسيح، بل في الواقع كامل حياته على الأرض، ممارسةً وتنفيذاً لوظيفة عيّنها له الآب. ففي ما يتعلق بالربّ يسوع، لا يمكننا التحدث عن اختياره لنفسه مهنةً أو عملاً أو حتى دعوةً خلقية. إذ أنه بحسب الكلمة المقدسة تعيّن في وظيفة خاصة. وهنا يكمن الفرق بين الوظيفة والمهنة أو العمل : فالمرء لا يستطيع أن يختارها بل يتلقاها فقط بالتكليف من قِبل سلطة أعلى منه.

صحيح أنه يختلف عن موسى من هذا القبيل في أنه بصفته ابناً على بيته الخاص، لا خادماً، كان أميناً اتجاه الآب في كل شيء (عب ٣:٥، ٦). لكنه كان أميناً أيضاً للذي عينه رسولاً ورئيس كهنة في الإيمان الذي نعترف به (عب ٣:٢). وهو لم يأخذ بنفسه هذه الوظيفة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الشريفة، أي مقام رئيس الكهنة، بل إن الله نفسه مجده هكذا، قائلاً له : "أنت ابني الحبيب؛ أنا اليوم ولدتك" (عب ٥:٥). ووفقاً لهذا يشدد المسيح كلياً في كل حين على حقيقة كون الآب قد أرسله، وعلى أن طعامه هو أن يفعل مشيئة الآب، وأنه قبل من الآب وصية بشأن ما سوف يفعله ويقوله، وأنه أكمل عمل الآب على الأرض، وما شابه ذلك.

وبديهي أن هذا التعيين للوظيفة قد تم قبل الوقت الذي صار فيه المسيح إنساناً. فالكتاب المقدس لا يُعلّم فقط أن المسيح كان عند الله في البدء وأنه كان هو الله، بل يقول أيضاً صراحةً في عبرانيين ١٠:٥ – ٧ إنه عند دخوله للعالم قال : ذبيحةً وقرباناً لم ترد، ولكن هيأت لي جسداً (وذلك لأخل إتمام مشيئة الله بتقديم هذا الجسد للموت)؛ بمحرقات وذبائح للخطية لم تسر. ثم قلت : هأنذا أجيء... لأفعل مشيئتك يا الله. فالدخول إلى العالم، أو التجسد، إنما كان يخص إذاً تنفيذ العمل الذي ألقاه الله على المسيح كي يفعله. ذلك أن التكليف سابق للتجسد، وهو لم يحدث في الزمن بل كان قائماً منذ الأزل.

لذلك يقال في مواضع أخرى إن المسيح كان معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم (١بط ٢٠:١)، وإن الاختيار قد تم والنعمة قد أُعطيت لنا في المسيح قبل إنشاء العالم (أف ٤:٢ ؛ ٢تي ٩:١)، وإن سفر الحياة مفتوح أمام وجه الله من قبل تأسيس العالم هو للخروف المذبوح (رؤ ٨:١٣ ؛ ٨:١٧). والتفكير في عمل المسيح باعتباره ممارسة لوظيفة هو ربط لذلك العمل بالمشورة الأزلية. وقد أُطلق عليه اسم المسيح، أي الممسوح، لأن الآب عينه في الأزل، ثم مسحه في الزمن بالروح القدس.

وفي المقام الثاني، تحتوي الوظائف الثلاث التي أُكلت إلى المسيح على ما يشير إلى دعوة الإنسان وغايته الأصليتين. فليس أمراً اعتراضياً أو اعتباطياً على الإطلاق أن يُعيّن المسيح في الوظائف الثلاث بالتحديد، نبياً وكاهناً وملكاً، وليس في وظائف أخرى أو إضافية. بل إن ذلك المؤسس بالأحرى على قصد الله للجنس البشري، وعلى الطبيعة البشرية بالتالي. فقد خلق آدم على صورة الله في المعرفة والبر والقداسة، لكي يعلن كلام الله كنبي، ويملك على المخلوقات كملك، ويكرس ككاهن نفسه وكل ما له لله كتقدمة مرضية. وأُعطي أدم عقلاً كي يعرف، ويداً كي يملك، وقلباً كي يحيط بكل شيء في المحبة. فإن الغاية والقصد من الإنسان يتحققان في كشفه عن صورة الله، وفي تطويره المتناغم لكل مواهبه وقدراته، وفي ممارسته للوظائف الثلاث كنبي وكاهن وملك. ولكن الإنسان انتهك هذه الدعوة العليا. ولهذا السبب جاء المسيح إلى الأرض : ليُظهر من جديد صورة الإنسان ويحقق القصد منه إلى التمام. فعقيدة الوظائف الثلاث تُرسي ارتباطاً راسخاً بين الطبيعة والنعمة، والخلق والفداء، المسيح وآدم. ذلك أن آدم الأول مثال لآدم الأخير وسابق له ومنبئ به، أما الأخير فهو قسيم الأول ومكمله.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وفي المقام الثلاث، ترتبط عقيدة الوظائف الثلاث مباشرةً مع إعلان العهد القديم. فلما صارت البشرية الساقطة في آدم فاسدة أكثر فأكثر، اختار الله شعباً معيناً خاصةً له. وفي ما يتعلق في تلك الدعوة تلقى شعب العهد القديم أيضاً، بوصفه شعباً، مهمته تجمع النبوة والكهنوت والملك. فكان واجباً أن يكون ذلك الشعب مملكة كهنة وأمة مقدسة للرب (خر ١٩:٦). ولكن هذه المهمة عهد بها، بمعنى خاص، إلى الرجال الذين دعاهم الله من ذلك الشعب ليكونوا أنبياء وكهنة وملوك. ومع أن ذلك الشعب بجملته كان يصحّ أن يدعى "مسيح الرب"، فإن هذه التسمية كانت موافقة على الخصوص للأنبياء والكهنة والملوك. غير أن جميع هؤلاء الرجال كانوا خطاة، فلم يستطيعوا بالتالي أب يقوموا بوظائفهم حق القيام. شأنهم شأن الشعب ككل أشاروا بعيداً عن أنفسهم إلى شخص آخر سيكون ملكاً وكاهناً ونبياً في الوقت الواحد عينه، وسيدعى "مسيح الرب" بمعنى فريد (إش ١٦:١). ففي المسيح يتحقق إعلان العهد القديم كله، إذ أنه التقسيم المتمم للشعب كله ولجميع أنبيائه وكهنته وملوكه. وهو بالحقيقة ذاك الذي فيهم وبهم يشهد لنفسه ويمهد لمجيئه (١بط ١١:١).

وفي المقام الأخير،لا يفهم عمل المسيح حق الفهم ما لم يتم تناوله بالنظر إلى الوظائف الثلاث. فطالما شهدت الكنيسة المسيحية اتجاهات أحادية رأت فيه النبي فقط، على غرار العقلانيين؛ أو شغلتها آلامه الكهنوتية وحسب على غرار المتصوفة؛ أو لم تجد فيه إلا ملكاً، على غرار الألفيين. ولكننا نحتاج إلى مسيح يجمع في ذاته هذه الثلاث معاً. منحن في حاجة إلى نبي يعلن لنا الله، وكاهن يصالحنا مع الله، وملك يحكم ويحمينا باسم الله. وينبغي أن تُستعاد صورة الله في الإنسان كاملة، لا المعرفة وحدها، بل القداسة والبر أيضاً. ولا بد من خلاص الإنسان كله، من حيث النفس والجسد، ومن حيث الرأس والقلب واليد. إننا نحتاج إلى مخلص يفتدينا إلى التمام والكمال ويحقق فينا القصد الأصلي من وجودنا أكمل تحقيق. وهذا كله يفعله المسيح. فلأنه هو نفسه نبي وكاهن وملك، فهو يجعلنا بالتالي أنبياء وكهنة وملوكاً لله أبيه (رؤ ٦:١).

ومع أن المسيح قد مُسح منذ الأزل، ومع أنه كان ناشطاً على نحو استهلالي في أيام العهد القديم بوصفه وسيط عهد النعمة، فإنه اتخذ لنفسه –كلياً وعملياً أول مرة – وظائف النبي والكاهن والملك لما دخل إلى العالم قائلاً : هأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله. فعندئذ اتخذ لأول مرة تلك الطبيعة الإنسانية التي أعدته للقيام بعمل الوسيط. إذ كان ينبغي أن يصير إنساناً ليعلن اسم الله للبشر، وليتمكن من أن يتألم ويموت على الصليب، وليون شاهداً للحق باعتباره ملك الحق.

لذلك كان الحبل بالمسيح من الروح القدس هو في ذات الوقت إعداداً مبدئياً لطبيعة المسيح الإنسانية لأجل العمل الذي يُدعى إليه في ما بعد. وقد أُثيرت في عصرنا اعتراضات شتى على الاعتراف بأن المسيح حُبل به بالروح القدس وولد من العذراء مريم، كما بذلت عدة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

جهود لتعليل ما جاء في إنجيلي متى ولوقا في شأن ذلك باعتباره تحريفاً يهودياً ووثنياً لنص الإنجيل الأصلي. ولكن النتيجة التي آلت إليها حقيقية هذا الأمر التاريخي أنها ثبتت ورسخت أكثر من ذي قبل. فلا يمكن أن يكون ذلك مستمداً من عند اليهود والوثنيين. إذ أنه خبر تاريخي صريح مؤسس على شهادة يوسف ومريم نفسيهما كما هو واضح أيضاً من اللغة التي ورد بها. وبالطبع، انقضت فترة غير قصيرة وخبر هذا الحبل المعجزي معروف فقط لدى يوسف ومريم، وربما أيضاً عند عدد قليل من الأصدقاء الأوفياء. فلم يكن مثل هذا الخبر بطبيعة الحال، أمراً معداً للتداول العلني.

ولكن فيما بعد، عندما اتضح من هو المسيح وما هو، من أفعاله وأقواله، ومن قيامته أيضاً بصورة خاصة، عندئذ فقط خطت مريم خطوة إعلان سر الحبل المعجزي بيسوع لحلقة التلاميذ الصغيرة. غير أن هذا الحبل من الروح القدس لم يبرز – ولو بعد ذلك – إلى مقدمة موضوعات الكرازة الرسولية. ربما كان مفترضاً ضمنياً في مواضع، إلا أنه غير مذكور صراحةً إلا في متى ولوقا. ومع ذلك، فإن هذا الأمر هو عنصر جوهري من مقومات الإنجيل، وهو يتوافق كلياً مع كامل العقيدة المختصة بشخص المسيح كما تعلّم بها كلمة الله المقدسة. فلنذكر أنه هو الابن الوحيد الذي، من حيث هو الكلمة، كان عند الله وكان هو الله من البدء، وهو نفسه كان فعّالاً عند الحبل به، وبعمل الروح القدس هيأ لنفسه طبيعة بشرية في أحشاء مريم (في ٦:٢، ٧). وفيه تحققت نبوءة إشعياء (١٤:٧ ؛ ٦:٩ ؛ قارن أيضاً متى ٢٥:١) بأن العذراء (امرأة صبية غير متزوجة) سوف تحبل وتلد ابناً وتدعوه عمانوئيل، وأنه سيدعى أيضاً عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام.

وبهذا الحبل من الروح القدس، كانت طبيعة المسيح هذه الإنسانية – من أول أمرها – خالصة من كل خطية بشرية. فلما كان ابن الله موجوداً قبل ذلك بصفته شخصاً، ولأن هذا الشخص لم يتحد بكائن بشري موجود، بل هيأ لنفسه طبيعة بشرية في أحشاء مريم بعمل الروح القدس، فإن عهد الأعمال لم يكن ليشمله، ولم يكن يحمل أي إثم أصلي، ولا كان ممكناً أن يدنسه أي تلوث بالخطية. أما التعليم القائل بأن مريم أيضاً حُبل بها بلا دنس، وبأنها عاشت في القداسة الكلية، فلا داعي له ولا مسوغ ولا أساس، بل إنه مناقض لما يقوله الكتاب المقدس عن مريم. لقد حظيت مريم بشرف رفيع، أسمى مما ناله الأنبياء والرسل. فهي المطوبة، المنعم عليها، المباركة في النساء، أم الرب (لو ٤٢:١، ٤٣). غير أنها هي نفسها كانت ككل ذي جسد، كالبشر جميعاً. والقدوس المولود منها (لو ٣٥:١) لم يكن كذلك بفضل طهارة طبيعتها، بل بفضل عمل الروح القدس الخلاّق والمقدس في أحشائها.

ومع أن الطبيعة الإنسانية التي اتخذها المسيح من مريم كانت كلية القداسة، فقد كانت مع ذلك ذات طبيعة محاطة بالضعف البشري. وذلك مُعبر عنه في الكلمة المقدسة حيث تقول

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إن المسيح صار جسداً لا إنساناً فقط (يو ١:٤)، وإنه أُرسل في شبه جسد الخطية (رو ٨:٣)، واتخذ صورة عبد (في ٢:٧)، وصار مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية (عب ٢:١٧ ؛ ٤:١٥). وقد كان واجباً أن يتخذ المسيح مثل هذه الطبيعة البشرية الضعيفة لكي يُجرب، وكي يتعلم الطاعة مما تألم به، وليتمكن من أن يجاهد ويقدس ذاته بالجهاد، وليتعاطف معنا في ضعفنا ويكون رئيس كهنة رحيم وأمين – وبكلمة : كي يقدر أن يتألم ويموت. ورغم أنه كان كآدم قبل السقوط، من حيث كونه بلا خطيئة، فقد كان مختلفاً جداً عن آدم من عدة نواحٍ. فإن آدم خُلق راشداً في الحال، ولكن المسيح حُبل به في أحشاء مريم وولد طفلاً قاصراً. ولما جاء آدم كان كل شيء قد أُعد له، ولكن لما جاء المسيح إلى الأرض لم يعتد أحد به ولا كان له حتى مكان في المنزل. وقد جاء آدم ليملك ويخضع الأرض كلها لسيطرته. أما المسيح فلم يأتي ليُخدم، بل ليخدم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين.

فلم يكن تجسد ابن الله إذاً مجرد تنازل بالنعمة، كما يحصل وهو في حال الارتفاع، بل كان في الوقت نفسه أيضاً عمل اتضاع عميق. وقد بدأ الاتضاع بالحبل ذاته، واستمر طوال حياة المسيح حتى موته ودفنه. فلم يكن المسيح بطلاً بشرياً، شعاره التفوق، يُذلل كل عقبة ثم يبلغ أخيراً ذروة شهرته. بل إنه – على نقيض ذلك – أمعن في الاتضاع أكثر فأكثر، مشتركاً معنا في المعانات على نحو يتزايد أُلفة ومشاركة. والطريق النازل إلى هذه الأعماق تميزه درجات أو خطوات : الحبل، الولادة، العيشة الوضيعة في الناصرة، المعمودية والتجربة، المعارضة، الذم والاضطهاد، المعانات في جثسيماني، الحكم عليه أمام قيافا وبيلاطس، الصلب، الموت، الدفن. إنه طريق يتباعد دائماً عن بيته عند الآب، ويتقارب دائماً إلينا في مشاركتنا بالمعانات والموت، إلى أن يطلق أخيراً – في أعمق أعماق آلامه – تلك الصرخة الملهوفة تعبيراً عن الشكوى من هجران الله له. وعندئذ يستطيع أيضاً أن يُطلق هتاف النصر : قد أُكمل!

تنتمي إلى هذا الاتضاع الظروف البسيطة وفضلاً عن الحبل والولادة، بولادة يسوع عند عنبر ببيت لحم، الاضطهاد الذي عاناه من قِبل هيرودس، والفرار إلى مصر قسراً مع وأبويه : وأيضاً الحياة الهادئة وغير العلنية التي قضاها في الناصرة أثناء سني حداثته. ولا تخبرنا الأناجيل بالكثير عن هذه، لأن الأناجيل لم يقصد بها قط أن تروي لنا "سيرة حياة يسوع" بالمعنى العصري، بل بالأحرى أن تعرّفنا بالمسيح من حيث كونه ابن الله ومخلص العالم والابن الوحيد عند الآب. وفي ضوء هذا القصد يكفينا القليل الذي يُقال لنا عن طفولة يسوع وصباه.

يفيدنا متّى أن يسوع، بعد عودته من مصر، مضى ليقيم في كنف أبويه في ناصرة الجليل (مت ٢:٢٣). هناك سبق أن سكنت أمه (لو ١:٢٦)، وهناك أمضى هو سني حياته السابقة لخدمته العلنية بين بني إسرائيل (لو ٢:٣٩، ٥١ ؛ مر ١:٩). ولم يتجه إلى كفر ناحوم ويقيم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فيها إلا بعد وقوفه في مجمع الناصرة ورفض مواطنيه له (لو ٤:٢٨ وما يليها؛ مت ٤:١٣)، لكن اسم الناصري أُطلق عليه دائماً. وقد رأى متّى في ذلك إتماماً لنبوة العهد القديم (مت ٢:٢٣)، لا لعبارة معينة منها، بل للنبوة إجمالاً كما هي موجودة عند جميع الأنبياء، حيث يُشار بالتحديد إلى أن المسيح سيطلع من أصلٍ وديع ووضيع (إش ١١:١) وأن النور سيشرق على الظلام الذي يعم جليل الأمم (إش ٨:٢٢، ٩:١، ٢).

نحن نعلم أن يسوع، في حياة الاعتزال التي عاشها في الناصرة عدة سنين، كان ولداً مطيعاً لأبويه (لو ٢:٥١). كان الصبي يسوع ينمو جسمياً ويتقوى بالروح ويتقدم في النعمة عند الله والناس (لو ٢:٤٠، ٥٢). ولما كان ابن اثني عشر سنة، صعد مع أبويه إلى أورشليم في عيد الفصح، ولسنا ندري هل كانت تلك أول مرة أو سبقتها أخرى (لو ٢:٤١ وما يليها)، حيث أظهر – بأسئلته وأجوبته – حكمته في وسط المعلمين. وليس هذا فقط، بل إنه أظهر أيضاً لأبويه وعيه لدعوته، إذ أشار إلى أنه، بوصفه الابن، ينبغي أن يكون في ما لأبيه، أو يهتم ببيت أبيه (لو ٢:٤٩). وكان يوم السبت، حسب عادته، يذهب إلى المجمع (لو ٤:١٦)، وخلال أيام الأسبوع يساعد أباه في مهنته كما يفترض. وعلى الأقل، دُعي هو نفسه بالنجار في ما بعد (مر ٦:٣). وفي الجزء الأخير من حياته ما يلقي على سني حداثته ضوءاً هذا مقدراه : فنحن نعلم أنه كان يجيد القراءة والكتابة، ويعرف العهد القديم معرفة كليّة، ويدرك حقيقة الفريسيّين والصدوقيّين، ويعي حاجة الشعب الأدبية، وقد واكب الحياة المدنية والسياسية في عصره جيداً، وأحب الطبيعة، وكثيراً ما انسحب معتزلاً الناس للشركة مع الله. وعلى ضآلة هذه المعلومات، فهي كلها تشير إلى حقيقة مؤداها أن المسيح كان، في أثناء سني العزلة دون الثلاثين، يُعدّ نفسه للمهمة التي كان منتظراً أن يقوم بها في حياته العلنية لاحقاً. فقد اتضح له أكثر فأكثر، بصفته إنساناً، من هو وماذا عليه أن يفعل. وكان ماثلاً في ذهنه، دائماً وبوضوح، أمر كونه يسوع المسيح بنوّته ومسيّويّته، بكل ما يرتبط بهما وينتج منهما. حتى إذا بلغ الثلاثين أخيراً، حان وقت ظهوره لإسرائيل (يو ١:٣١).

وقد كانت مناسبة هذا الظهور العلنيّ هي الكرازة التي بدأها يوحنا المعمدان في بريّة اليهودية جنوباً. فإن هذا الرجل المرسل من الله قد مهد السبيل لقدوم المسيح، وذلك بسبب الحركة الكبيرة التي أحدثها بين اليهود بدعوته لهم إلى التوبة. وقد أرسل الله يوحنا ليُعلم بني إسرائيل بأنهم مذنبون ومدنسون، ومحتاجون بالأحرى إلى معمودية التوبة لأجل مغفرة الخطايا، رغم تحدّرهم من إبراهيم وختانهم وبرّهم الذاتي. وخرج إلى يوحنا كثيرون من أورشليم واليهودية وجميع المنطقة المحيطة بالأردن، وتعمّدوا على يده، معترفين بخطاياهم. ومع أنه مانع أن يعمّد يسوع، لأنه أدرك أنه المسيح الذي وحده يستطيع أن يعمّد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

بالروح القدس وبالنار، وهو شخصياً لا يحتاج لأن يتعمد، فمع ذلك أصر المسيح على الأمر وقال إنه ينبغي أن يقبل المعمودية لأنه يليق به أن يكملّ كلّ برّ (مت ٣:١٥ وما يليها).

وختاماً، فإن الرب يسوع لا يقول إنه ينبغي له أن يُعمّد لأنه يحتاج إلى التوبة والغفران. فهو، على خلاف جميع المتعمدين في الأردن، لم يعترّف بأيّة خطية. لكنه رأى أن يوحنا كان نبياً. بل أكثر من نبيّ، لكونه سابقه وممهد سبيله (مت ١١:٧ – ١٤)، كما رأى – له المجد – أن معمودية يوحنا لم تكن ممارسة طقسيّة وليدة فكرة يوحنا نفسه بل هي مسؤولية ومهمة قبلها من السماء (مر ١١:٣٠). وهكذا تأسست معمودية يوحنا على مشيئة الله وكانت جزءاً من البرّ الذي كان للمسيح أن يكمله. فإذ مارس المسيح تلك المعمودية، أخضع نفسه – من جهة لمشيئة – الآب، ومن الجهة الأخرى أدخل نفسه في أوثق علاقة ممكنة بالناس الذين قبلوا التوبة ومغفرة الخطايا معبرين عن ذلك بقبول المعمودية. فإن معمودية يوحنا هي بالنسبة للمسيح علامة خضوعه التام لكامل مشيئة الله، والدخول العلني إلى لبّ الشركة مع جميع شعبه، والخطوة الملكية الأولى إلى الميدان المسياويّ.

ومن هنا كان للمعمودية بالنسبة المسيح معنى يختلف عن معناه بالنسبة إلى الآخرين. فهو شخصياً لم يعطي علامة التوبة وختم المغفرة، بل عُمد بالروح القدس باعتباره وحده من يستطيع أن يعمد الناس بهذه المعمودية، وبالنار أيضاً. وفي وقت متأخر ذهبت بعض الطوائف إلا أنه في لحظة اعتماد المسيح اتحدت طبيعته أو قدرته الإلهية، أول مرة، بيسوع الإنسان. غير أن هذه الفكرة هرطقة واضحة، لأنها تسيء إلى تجسد الكلمة بالحبل. ولكن من المؤكد أن معمودية يسوع كانت هي إعداده التام لمهمته. لأنه لما صعد من الماء انفتحت السماوات، ونزل عليه روح الله، وسمع من السماوات صوتاً يقول : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت (كل السرور)(مت ٣:١٦، ١٧). ومع أن هذا الأمر لم يدركه إلا قليلون، فقد كان يوم اعتماد المسيح هو يوم ظهوره لإسرائيل وبداءة خدمته العلنية باعتباره المسيّا.

ولكنه قبل مباشرة تلك الخدمة، اختلى أياماً في عزلة البرية. وهناك لم يلتق كائناً بشرياً واحداً، بل أحاطت به الطبيعة الصامتة والوحوش، أما طبيعة تأمله فتضح لنا نوعاً ما من سياق خبر التجربة. فإن تجربة الشيطان له، وقد حدثت في نهاية الأربعين يوماً، يورد متّى بياناً تفصيلياً عن وقائعها، شكلّت ذروة للجهاد الذي خاضه، إلا أنها لم تكن هي التجربة الوحيدة بأية حال. ذلك أن لوقا يفيدنا بالحرف الواحد أنه كان "أربعين يوماً يُجرب من إبليس" (٤:٢) وأن إبليس لما أكمل كل تجربة فارقه إلى حين (٤:١٣). ثم أن المسيح تجرب في كل شيء مثلنا، إنما بلا خطية (عب ٤:١٥).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

على أن التجربة في البرية كانت ذات علاقة بخطة خدمة المسيح العلنية. فبعد المعمودية، كان المسيح ممتلئاً من الروح القدس (لو ٤:١)، والروح هو من اقتاده إلى البرية ليجربه إبليس (مت ٤:١). فقد كان يسوع آنئذ عالماً – إلى التمام وبمنتهى الوضوح – بحقيقة كونه المسيح ابن الله وبامتلاكه قدرات إلهية. ولكن إي استخدام سيستخدم هذه القدرات؟ أيوظفها علة نحو أناني في سبيل تلبية حاجاته الشخصية، أو يحني ركبته لسلطة أرضية فينال ملكاً أرضياً، أم يكسب تأييد الشعب له من طريق الآيات والعجائب الدرامية؟ في هذه النقط الثلاث جميعها جربه المجرب. إلا أنه – له المجد – ظل على ثباته في كل حال. فهو قد تشبث بكلمة الله، وبتلك الكلمة رد كل تجربة. وقد خضع لمشيئة الآب وطريقه، وأقام على طاعته، وقدّس ذاته كذبيحة لله. وهكذا فهو يعرف، من اختباره الخاص، لا تعنيه التجربة فقط، ولا كيف يرثي لنا في ضعفنا وحسب، بل أنه قادر أيضاً أن يعين المجربين، وذلك لأنه لم يستسلم للتجربة على غرار آدم (عب ١٨:٢ ؛ ١٥:٤).

****

بهذه الطريقة أُعد يسوع لخدمته الجهارية وممارسة وظائفه. والوظيفة النبوية، بين وظائفه الثلاث، هي التي نالها التركيز الأكثر خلال تلك الفترة الأولى. في الحقيقة أنه بعد أن مارس المسيح خدمته العلنية قابله الشعب لا باعتباره معلماً (رابياً أو سيداً) وحسب، بل رحبوا به أيضاً بوصفه نبياً. وفي أعقاب إقامته ابن أرملة نايين، هتف الجمع قائلاً : قد قام فينا نبياً عظيم، وافتقد الله شعبه (لو ١٦:٧). وهكذا ظلت الحال على هذه الصورة إلى أخر حياته. أعتبره كثيرون نبياً، بسبب أقواله وأعماله مع أنهم لم تكن لديهم أدنى فكرة على الإطلاق عن وظيفتيه الأُخريين، الكهنوتية والملكية، أو حتى لو كانوا على النقيض منكرين لهما. وبالحقيقة أن المسيح من حيث كونه نبياً، أي شخصاً قادراً على تعليمنا ما يتعلق بالله وبالأمور الإلهية هو أفضل مما يستطيعه سواه، مازال حتى يومنا هذا يحظى بالإكرام من لدى الذين يعلقون على الدين أيّة أهمية مهما كانت. غير أن هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم يناهضون فكرة كون المسيح كاهناً وملكاً باعتباره مفهوماً يهودياً بالياً. حتى أن القرآن يعزو إليه هذا المقام الشريف.

على أن المسيح نفسه أراد أن يكون نبياً بمعنىً آخر يختلف عن ذالك الذي اعتبره به اليهود نبياً. فلما عاد إلى الجليل، بعد أن تعمّد على يد يوحنا وجُرب في البرية، أظهر نفسه علناً بعد ذلك في المجمع بالناصرة، حيث طبق على نفسه النبوة الواردة في إشعياء ١:١١. فقد كان روح الرب عليه ليبشر المساكين ويشفي منكسري القلوب (لو ١٦:٤ وما يليها). وهو لم يقدم نفسه نبياً مساوياً الآخرين، بل بالأحرى أسمى منهم كثيراً. فقد كان الأنبياء الأقدمون عبيداً للرب، أما هو فإنه الابن (مت ٣٧:٢١). وهو السيد الوحيد (مت ٨:٢٣، ١٠ ؛ يو ١٣:١٣، ١٤). صحيح أنه يشترك مع سائر الأنبياء في مواهب الدعوة والمسحة، وإعلان

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

كلمة الله والكرازة بها، والتنبؤ والقدرة المعجزية. ولكنه مع ذلك يسمو عليهم جميعاً، وهو متقدم عليهم. فإن دعوته ومسحته ترجع إلى الأزل، كما أن تخصيصه وإعداده بدأا باكراً عن الحبل به من الروح القدس. وعند معموديته نال الروح القدس بغير حد، وحياه صوت من السماء بوصفه الابن الحبيب الذي سرّ به الآب. وبالحقيقة أنه لم يتلق إعلانات موسمية بين الفينة والفينة، بل بالأحرى هو نفسه الإعلان الكامل لله، والكلمة الذي كان عند الله وكان هو صار الله وصار جسداً، وقد كان في حضن الآب وهو دائماً فيه. وفي حياته كلها لم يقل أو يفعل شيئاً غير ما أخذ وصية بشأنه. وبالتالي. فإن ما قدمه لم يكن جزءاً من الإعلان ينبغي أن يوضحه سواه في ما بعد، بل إنه هو دفعة واحدة الإعلان الكامل لله، والشخص الذي يتم ويختتم كل نبوة سابقة. وعليه، فإن الله – بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة – تكلم في هذه الأيام الأخيرة في ابنه (عب ١:١). وفي الواقع أن النبوة التي حصلت من الآباء في التدبير القديم تدين له بالفضل؛ ذلك أن روح المسيح هو الذي شهد في الأنبياء (١بطرس ١١:١)، كما أن المسيح كان هو مضمون تلك الشهادة (رؤ ١٠:١٩).

إذاً، كانت كرازة المسيح بمفهوم أعمق إعلاناً ذاتياً – فقد كانت إعلاناً لذاته وعمله بمفهوم أعمق. ولما أظهر ذاته علناً، جعل يوحنا المعمدان وأنبياء العهد القديم نقطة انطلاقه : قد اقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل (مت ٢:٣ ؛ ١٧:٤). ولكن الأنبياء الأقدمين ويوحنا المعمدان إنما كانوا معلني قدومه، وقد رأوا ملكوت الله العتيد (مت ١٠:١١، ١١). على أن الزمان قد كمل، وفي شخص المسيح نزل ملكوت الله على الأرض. حقاً أن الله هو الملك والآب في هذا الملكوت (مت ١٦:٥، ٣٥، ٤٥). ولكن الآب دفعه إلى المسيح كي يعطيه، بحسب مسرة الآب، لتلاميذه.

وقد كشف المسيح في كرازته، مصدر ذلك الملكوت وطبيعته، والطريق المؤدي إليه، والخيرات التي يشتمل عليها، وتطوره التدريجي، واكتماله النهائي. وهو لم يفعل ذلك عن طريق الجدل الفلسفي أو الخطابات اللاهوتية، بل بالأمثال الرمزية. وقد استعار صوره البيانية من الظواهر الطبيعية، أو عن وقائع الحياة اليومية العملية، وكلم الجموع دائما بطريقة نابضة بالحياة والحركة وتتيح لهم أن يسمعوا ويفهموا (مر ٣٣:٤). على أنه لما لم يفهم كثيرون كلامه رغم ذلك، أو استثنوا أنفسهم منه، كان ذلك دليلاً على قساوة قلوبهم، وعلى مسرّة الآب الذي أخفى هذه الأمور المختصة بالملكوت عن الحكماء والفهماء وأعلنها للأطفال (مت ٢٥:١١ ؛ ١٣:١٣ – ١٥). غير أن كلماته بحد ذاتها كانت بسيطة وسهلة الفهم دائماً، مع أنها تناولت أعمق أسرار ملكوت الله. ذلك لأن المسيح، من حيث كونه في شخصه الابن والوارث، هو نفسه مالكاً هذه الأسرار ومعلنها ومفسرها أيضاً. فهو، في

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ظهوره، وفي أقواله وأعماله، أعلن لنا الآب (يو ١:١٨). ومن رآه فقد رأى الآب (يو ١٤:٩).

فالكلمة التي كرز بها المسيح إذاً لم تكن في مضمونها سوى ما أُعلن في أيام العهد القديم. وقد اشتملت على الشريعة والبشارة معاً، لكن المسيح لم يكن مشترعاً جديداً وسّع وحسّن ناموس الله المعطى في العهد القديم. ثم إن البشارة التي كرز بها المسيح ما كانت غير تلك التي أعلنها الله منذ جنة عدن. فالمسيح لم يأتي إلى الأرض لينقض الناموس أو الأنبياء بل ليكمل (مت ٥:١٧). وهو قد أكمل بتطهير الناموس والأنبياء من التفسيرات الخاطئة والإضافات البشرية، وبالإتيان بمضمون الناموس والأنبياء إلى تحقيقه الأوفى في شخصه وعمله. من هنا وقفة المسيح في علاقة بالناموس تختلف عن وقفة موسى، وفي علاقة بالبشارة، فالنعمة والحق بيسوع المسيح صارا (يو ١:١٧) وقد حمل موسى الناموس بين يديه على لوحي حجر، وفي ذلك كان الأنبياء بالحقيقة كارزين بالبشارة، غير أنهم لم يكونوا هم أنفسهم موضوع البشارة. غير أن المسيح حمل الناموس داخل أحشائه، وتمم مشيئة الآب على النحو الأكمل دون أي نقص على الإطلاق؛ وهو لم يكن فقط معلناً للبشارة بل كان أيضاً مضمونها، لكونه العطيّة العظمى التي أعطاها الله للعالم. فالنعمة والحق صارا بيسوع المسيح، وهما لا يمكن أن يُفصلا عن شخصه.

****

هذا، وأعمال المسيح تصحب أقواله وتؤيدها. ولهذه الأعمال أيضاً علاقة بأعمال المسيح وإتمام لمشيئة الآب (يو ٤:٣٤). فهو لم يقم بها من تلقاء ذاته، بل إن الآب دفع كل شيء إلى يده (مت ١١:٢٧ ؛ يو ٣:٣٥)، والابن لم يفعل شيئاً غير ما رأى الآب أن يفعله (يو ٥:١٩). فالآب الحال في الابن، هو نفسه، عمل هذه الأعمال (يو ١٤:١٠). وكما كانت الأعمال الإلهية المصدر، فكذلك كانت ذات صفة إلهية، ليس فقط لإنها معجزات تخالف مجرى الطبيعة العادي، بل أيضاً لأنها غير مألوفة ولم يكن الآخرون ليقومون بها. فبينما تصرف الآخرون دائماً بموجب إرادتهم الخاصة، لم يسع المسيح قط إلى مصلحته الشخصية، ولا رضاه الذاتي (رو ١٥:٣). ولكنه بدلاً من ذلك تمم مشيئة الآب منكراً نفسه. ورغم كل شيء، تحتل المعجزات مكانة هامة بين سائر تلك الأعمال. فهي – من جهة – علامات وبيّنات على إرسال الله له وتأييده إياه بقوته، وهي – من جهة أخرى – أعمال قُصد بها سد حاجات الإنسان الجسدية والروحية. ذلك أن معجزات المسيح كلها هي معجزات فداء وشفاء، ولذلك فهي تتعلق بممارسته لوظيفته الكهنوتية.

وهذا واضح بجلاء من الحدود التي فرضها المسيح نفسه على قيامه بالمعجزات. ففي البرية قاوم تجربة الشيطان له بأن يستخدم قدرته الإلهية لأجل مصلحته الخاصة. وكذلك صد هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

التجربة طوال حياته، مع أنه ينطبق على خدمته العلنية كلها ما قاله في بستان جثسيماني من أنه يستطيع أن يطلب إلى أبيه فيقدم له أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة (مت ٢٦:٥٣). وقد رفض مرة بعد الأخرى، أيجري المعجزات لإشباع فضول الناس، من النادر أن يرى حداً للإعلان في ما يلاقيه من عدم إيمان (مت ١٣:٥٨). وكم مرة أيضاً أصدر إلى الذين شفاهم بمعجزة أمراً بألا يقولوا شيئاً عن ذلك (مر ١:٣٤، ٤٤ ؛ ٣:١٢). فهو لم يشأ أن يغذي الأفكار المغلوطة حول المسيّا والتي كان ممكناً أن تعززها أعماله.

ثم إن الأعمال التي عملها المسيح كانت بالفعل ذات وظيفة كهنوتية لهذا السبب أيضاً : أنها عبرت بصورة ظاهرة عن حنانه ورحمته فعن هذا الأمر نقرأ مراراً وتكراراً، ويرى البشير متّى في حوادث الشفاء هذه إتماماً لنبوءة إشعياء حيث قال إنه هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا (مت ٨:١٧). وفي موضع آخر تُقتبس هذه النبوة بالإشارة إلى موت المسيح الذي به كفّر عن خطايانا (يو ١:٢٩ ؛ ١بط ٢:٢٤). على أن الخطية والمرض يترافقان. فالمسيح، بوصفه رئيس الكهنة الرحيم، لم ينزع عنا خطايانا فقط بل أزال بذلك أيضاً عِلّة كلّ شقائنا. وهو يقدم الدليل الحاسم على حقيقة كونه قادراً على افتدائنا من كل شقائنا، في جميع المعجزات التي أجراها من طرد للأرواح الشريرة، وشفاء للعمي والصم، والمفلوجين والعرج، وإقامة للأموات، وإخضاع لقوى الطبيعة. فليس من ذنب هائل، ولا خطية مهما كانت، ولا شقاء أيّاً كان عمقه، إلا وهو قادر على نزعه برحمته الكهنوتية وقدرته الملوكية.

إن عمل الكهنوتية معبر عنه طبعاً، على نحوٍ أخص، في آلامه الأخيرة وموته، ولكونه بذل نفسه فديةً عن كثيرين هو إتمام للخدمة التي جاء إلى الأرض من أجلها والتي أنجزها طوال حياته (مت ٢٠:٢٨) فباعتباره حمل الله كان رافعاً لخطية العالم كل حين. وقد ابتدأ اتضاعه عند تجسده، وكان في حياة طاعة دائمة مقرونة بالآلام، واكتمل بموته على الصليب (في ٢:٨ ؛ عب ٥:٨). فمن قبل الآب تعيّن المسيح كاهناً، ونبياً أيضاً. وكما قام بوظيفته النبوية، فكذلك أيضاً بالتمام أكمل وظيفته الكهنوتية طوال حياته.

ومع ذلك يلاحظ أن المسيح لا يسمى كاهناً إلا في الرسالة إلى العبرانيين بين أسفار العهد الجديد كله. صحيح أن حياته وموته يعرضان مراراً وتكراراً كذبيحة محرقة لله، غير أن الاسم بعينه لا يستعمل إلا في العبرانيين. ولهذا الأمر سبب وجيه. يقيناً أن المسيح هو كاهن، ولكنه كاهن بمعنى مختلف كلياً عن كهنة العهد القديم تحت شريعة موسى. فإن أولئك جاءوا من نسل هارون وسبط لاوي. وقد كانوا كهنة فقط، لا أنبياء وملوكاً في الوقت نفسه. وعاشوا وخدموا فترة قصيرة كان واجبهم بعدها أن يخلفهم آخرون. وكانوا يقدمون ذبائح من الكباش والتيوس التي لا تقدر البتة أن تزيل الخطية. إلا أن حال المسيح ليست هكذا. فهو طلع من سبط يهوذا، ولم يكن له أن يطالب بالكهنوت حسب نظام العهد القديم.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعليه، فبحسب الرسالة إلى العبرانيين لم يكن المسيح كاهناً على رتبة هارون، بل على رتبة ملكي صادق، الأمر الذي سبق أن أُنبئ به في المزمور ١١٠ : أن المسيح سيكون كاهناً يجمع في نفسه مقام الملك الرفيع ووظيفة الكهنوت ويظل كاهناً إلى الأبد. هذه الفكرة تتوسع فيها الرسالة إلى العبرانيين وتورد الحجج القاطعة على أن المسيح كاهن على رتبة ملك صادق، لا على رتبة هارون. وذلك لأن ملك في الوقت عينه؛ ولأنه كلي البر وعديم الخطية – لكونه ملك البر؛ ولأنه يظل كاهناً على الدوام ولا يخلفه آخر؛ ولأنه قدم ذبيحةً في جسده الخاص ودمه، لا دم تيوس وعجول؛ ولأنه بهذه الذبيحة حقق لشعبه خلاصاً كاملاً؛ وأخيراً لأنه بذلك أوجد سلاماً أبدياً، وهو ملك السلام (عب ٧:١١ إلخ...).
والتحريض العملي المبني على هذا كله، والموجه إلى المسيحيين الذين كانوا يهوداً في الأصل، وقد كانوا عرضة لخطر الارتداد، هو أنه ليس من سبب واحد يسوّغ لهم الرجوع، بل هم بالأحرى مدعون إلى التقدم(٦:١). فقد تم في المسيح، كلياً وإلى الأبد، كل ما كان مزموراً إليه بكهنة العهد القديم، وذبائحهم وصلواتهم التشفيعية، في سبيل إعطاء الشعب حق التقدم إلى حضرة الله. إذ كرس المسيح طريقاً حديثاً حياً إلى الحياة الأبدية، يستطيع المسيحيون أن يتقدموا بواسطته إلى عرش النعمة بكل ثقة وبيقين الإيمان (٤:١٦ ؛ ١٠:١٩ وما يليها).

****

وكما أن وظيفة المسيح الكهنوتية مرتبطة بوظيفته النبوية، فكذلك تماماً هي مرتبطة بوظيفته الملكية أوثق ارتباط. فمن الخصائص المميزة لوظيفة المسيح الكهنوتية ارتباطها بملكوته (مز ١١٠:٤ ؛ عب ٧:١٧). وعلى كل حال، كانت دعوة شعب العهد القديم أن يكونوا مملكة كهنة (خر ١٩:٦). ومع أن هذه الوظائف في إسرائيل كانت متمايزة، فقد سبقت النبوة فأشارت إلى أن المسيح، الغصن الذي من مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، سوف يحمل الجلال (الملكي) ويجلس ويتسلط على عرشه. فالمسيّا، الجامع في شخصه وظيفتي الملكوت والكهنوت، سيحقق بهذا الجمع السلام الكامل الذي يحتاج إليه شعبه (زك ٦:١٢:١٣).

وتكتسب وظيفة المسيح الملكية من ارتباطها بكهنوته صفةً خاصةً مميزة. نعم، كان لابد أن يأتي من بيت داود (٢صم ٧:١٦)، ولكن في زمن فيه يكون بيت داود قد تردّى في هوة الانحطاط (مي ٥:١) ولسوف يكون ملكاً عادلاً مزوداً بخلاص الله، لكنه أيضاً سيكون وديعاً، وعلامةً على اتضاعه سيأتي راكباً على حمار – على جحش ابن أتان (زك ٩:٩).
وكما أن المسيّا عند ظهوره لن يستعرض مجداً أرضياً وقوة دنيوية، فكذلك تماماً لن يؤسس ملكوته أيضاً بالعنف والسلاح. بل إنه في الحقيقة في ذاك اليوم يقطع المركبة من أفرايم،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

والفرس من أورشليم، وتقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام إلى الأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض (زك ٩:١٠ ؛ قارن مز ٧٢).

هذه النبوة عن المسيّا الآتي تمت بكاملها في المسيح. فالعهد الجديد يفيد، دائماً وبتشديد، أنه من بيت داود، وأنه بفضل شريعة الملك في إسرائيل يحق له أن يعتلي عرشه. فسلسلتا النسب كلتاهما (مت ١ ولو ٣) تسميانه "ابن داود". وقد أعلن الملك لمريم أن الله سيعطي ابنها، الذي يدعى ابن العلىّ، عرش داود أبيه، ويجعله ملكاً على بيت داود إلى الأبد (لو ١:٣٢، ٣٣). ومعترفاً به عموماً أنه ابن داود. وبتحدره هذا من نسل داود ترتبط فكرة كونه ملكاً وصاحب ملك وصاحب حق في الملك (لو ٢٣:٤٢).

على أنه ملك بمعنىً يختلف عما توقعه يهود ذلك الزمان من مخلصهم. فهو لم يشر قط بحقوقه الشرعية في عرش داود أبيه، لا أمام رؤساء الشعب اليهودي ولا أمام الملك هيرودس ولا أمام قيصر روما. وقد قاوم تجربة إحراز السيطرة على العالم بواسطة القوى العالمية (مت ٤:٨ – ١٠). ولما حاول الجمهور، بعد معجزة إشباع الآلاف، أن يجعلوه ملكاً، مضي من بينهم واعتزل في الجبل للصلاة (يو ٦:١٥ ؛ مت ١٤:٢٣). حقاً أنه أظهر سلطانه الملوكي دائماً، ولكنه لم يفعل ذلك في استعراض السلطة كما يفعل رؤساء الأمم، بل في الخدمة وفي بذل نفسه فديةً عن كثيرين (مت ٢٠:٢٥ – ٢٨). وقد تم التعبير في كونه ملكاً بالسلطة التي بها تكلم، وأعلن قوانينه المختصة بملكوت السماوات، وأخضع لنفسه قوى الطبيعة، وأمر المرض والموت بالكف عن العمل، وبذل حياته على الصليب لكي يعود ويستردها، وسوف يدين الأحياء والأموات فعلاً بوصفه الملك والقاضي.

ولكن هذه الأهمية الروحية التي يضفيها المسيح على ملكوته، وفقاً لنبوة العهد القديم، ينبغي ألا تغرينا بأن نظن أنه ليس ملكاً بالفعل وأنه يجب أن يعطى هذا اللقب بمعنىً مجازيّ فقط. فكما أنه كاهن أفضل من كهنة العهد القديم لكونه كاهناً على رتبة ملكيصادق، لا على رتبة هارون، فهكذا أيضاً هو ملك أفضل، بكل معنى الكلمة، لأنه ملك يختلف عن رؤساء الأمم. إنه الملك الحقيقي فعلاً، وليس ملوك الأرض ملوكاً إلا بالصورة والشبه. فهو ملك الملوك، ورئيس ملوك الأرض، والملك الذي يملك، داخلياً وخارجياً، روحياً ومادياً، في السماء وعلى الأرض، إلى جميع أقاصي الأرض وعلى مدى الدهور.

فالمسيح لا يتنازل البتة، لا من أجل إله ولا إنسان، عن أي جزء من أي حق من حقوقه الشرعية في هذا الملكوت الكامل والأبدي. وفي أيام تجسده على الأرض لم يتخلَّ قط أيضاً عن أي حق من حقوقه الإلهية أو الإنسانية. لم يحاول الحصول على حقوقه بالقوة والعنف، بل أراد بلوغها فقط عن طريق الطاعة الكاملة لله. لكنه بعمله هذا عزز مطالبه. فقد برهن اتضاعه أنه ابن الله ولذا يجب أن يكون أيضاً هو الوارث لكل شيء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ولكي يبين أنه الملك حقاً، جعل دخوله الظافر إلى أورشليم في يوم الأحد الذي يتصدر أسبوع الآلام. فلم يعد الآن من خطر أن يساء فهم ملكوته. ذلك أن خلفه الآن حياة خدمة وطاعة صد بها كل قوة أو سلطة أرضية بعيدة عن ذاته. وقد بلغت الآن عداوة الشعب ذروتها له، وفي أواخر ذلك الأسبوع سيلقون عليه أيادي أثيمة ويقدمونه فريسة للموت. ومع أنه كان قد رفض في السابق محاولة جعله ملكاً، قام الآن بمبادرة دخوله الملكي إلى أورشليم (مت ٢١:١). فقد كان ينبغي أن يعلن مرة أخرى، قبل موته وأمام جميع الناس جهاراً، أنه هو المسيّا المرسل من الله والمولود من نسل داود. وقد قام بهذا الإعلان وفقاً للنبوءة المتحدثة عن ملك آيَ يكون وديعاً وراكباً على حمار، على جحش ابن أتان. وبسبب كونه المسيّا، فحقاً إنه كان ملكاً (مت ٢٧:١١). وقد شهد أيضاً هذه الحقيقة مرةً أخرى العنوان الذي كُتب فوق الصليب، وإن كان مخالفاً لرغبات اليهود بالإجماع (يو ١٩:١٩ – ٢٢).

****

مجمل حياة المسيح، بسائر نشاطاتها النبوية والملكية والكهنوتية قد بلغت ذروتها بموته. فالموت هنا إتمام للحياة. إذ أن المسيح جاء ليموت. وقد كان هو نفسه مدركاً لهذا تمام الإدراك. ففي ظهوره العلني الأول في مجمع الناصرة سبق فطبق على نفسه النبوة المختصة بعبد الرب المتألم (لو ٤:١٦ وما يليها)، ولذلك كان على علم تام بحقيقة كونه سيساق كنعجة إلى الذبح. فهو الحمل الذي يرفع خطية العالم (يو ١:٢٩). وكان لا بد أن ينقض هيكل جسده ولكن بعد ثلاثة أيام يقام (يو ٢:١٩). وكما رفع موسى الحية في البرية، فكذلك – بحسب مشورة الله – ينبغي أن يُعلق ابن الإنسان على الصليب (يو ٣:١٤ ؛ قارن ١٢:٣٢، ٣٣). وهو حبة الحنطة التي كان ينبغي أن تقع في الأرض وتموت لكي تأتي بثمر (يو ١٢:٢٤).

وهكذا أشار المسيح منذ بدء خدمته الجهارية، بالتشبيه والأمثال، إلى أن الموت سيكون خاتمة حياته. وكلما دنا موعد تلك النهاية، عبر عن هذه الحقيقة على نحوٍ أوضح وأصرح. وخصوصاً بعدما اعترف بطرس، ممثلاً جميع الرسل، في تلك اللحظة الحاسمة في قيصرية فيلبس، بيسوع أنه ابن الله الحي، بدأ المسيح يبين لهم أنه ينبغي أن يصعد إلى أورشليم، ويتألم كثيراً على أيدي الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتل، وفي اليوم الثالث يقوم (مت ١٦:٢١). ولم يفهم التلاميذ ذلك، ولم يريدوا مواجهته. حتى إن بطرس انتحى به جانباً، وبكل ثقة شرع ينهره، قائلاً : حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا ! غير أن الربّ يسوع رأى في هذا الكلام تجربة له فردّ بقسوة : اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله بل بما للناس (مت ١٦:٢٢، ٢٣). وقد حظي هذا الثبات من جانب المسيح في تسليم نفسه للموت بالرضا الإلهي، بعد ذلك بأيام قليلة على جبل التجلي. فكان صعوده إلى

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أورشليم موافقاً لمعنى الناموس والأنبياء (موسى وإيليا) ولمشيئة الآب. وما برح هو الابن الحبيب الذي سرّ به الآب جداً. وما كان بالتلاميذ أن ينهروه كما فعل بطرس بل أن يخضعوا له وأن يسمعوا (مت ١٧:١ – ٨).

ومع ذلك لم يكن هذا الموت شيئاً سعى إليه المسيح عنوةً. فهو لم يدعُ الفريسيين والكتبة تحدياً كي يلقوا أياديهم عليه. وعلى رغم علمه أن ساعته قد جاءت (يو ١٢:٢٣، ١٧:١)، فقد كان يهوذا هو من باعه وخانه عن عمد، وخدّام رؤساء الكهنة والفريسيين من ألقوا القبض عليه، وأعضاء السنهدريم والوالي بلاطس البنطي من حكموا عليه ونفذوا فيه حكم الموت. فإن مشورة الله لا تستثني الظروف التاريخية ولا تلغي جريمة الإنسان. بل إن المسيح، على نقيض ذلك، قد سلّم بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق، ولكن ذلك تم بحيث أخذه اليهود، وبأيدي أثمة سمروه بالصليب وقتلوه (أعمال ٢:٢٣، ٤:٢٨).

وموت المسيح هو النقطة الوسطى في كرازة الرسل، منذ البداية، وليس منذ شهادة بولس بل في شهادة جميع الرسل. إنه بعد قيامة المسيح فقط، وبإرشاد الروح القدس، فهمت ضرورة وأهمية تألم المسيح وموته عندئذ تم الإقرار بأن تألم المسيح وموته كانا أيضاً لعمله النبوي وبرهاناً على صدق تعليمه وختماً لحياته كلها. ونقرأ عنه أنه شهد لدى بلاطس البنطي بالاعتراف الحسن (١تي ٦:١٣)، وفي آلامه بغير ذنب وبكل صبر ترك لنا مثالاً لكي نتبع خطواته (١بط ٢:٢١). وهو الشاهد الأمين (رؤ ١:٥، ٣:١٤)، وبوصفه رئيس الإيمان ومكمله (عب ١٢:٢).

وهكذا كان موت المسيح إعلاناً لسلطانه الملكي، لأن موته لم يكن مصيراً محتوماً عليه أن يخضع له مكروهاً، بل هو عمل أتمه بملء إرادته واختياره (يو ١٠:١٧، ١٨). وقد كان موته على الصليب ارتفاعاً طوعياً عن الأرض وانتصاراً على الأعداء، لأنه به أكمل طاعة لوصية الآب (يو ١٤:٣١).

على أنه ينبغي لنا، بمقتضى الكرازة الرسولية، ألا نتوقف عند هذا الحد بالنسبة إلى موت المسيح. ذلك أن يسوع لم يكن في موته شاهداً وقائداً فقط، ولا شهيداً لا بطلاً، ولا نبياً وملكاً وحسب. بل كان قبل كل شيء عاملاً فيه ككاهن. فعمله باعتباره رئيس الكهنة هو الذي يبرز إلى المقدمة في موته أكثر الكل. إذ إن موته، بحسب تعليم الكتاب المقدس ككل، كان ذبيحة مجانية قدمها الآب به.

وعندما يقدم العهد الجديد موت المسيح على أنه قرباناً، أنه يقترن مباشرةً بالعهد القديم. فقد وجِدت القرابين منذ أقدم الأزمنة. إذ نقرأ عنه في ما يتعلق بقايين وهابيل، ونوح والآباء، ونجدها لدى جميع الأمم وفي سائر الأديان. ويمكننا القول عموماً إن غرضهم هو ضمان رضى الإله والتمتع بالشركة معه، أو اكتسابه مجدداً، وذلك بإجلال بتقديم عطية مادية

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

قوامها ممتلكات حية أو جامدة تتلف بمقتضى طقس احتفالي معين. وقد ضمن الرب أيضاً مثل هذه القرابين في شريعته المعطاة لشعب العهد القديم. ولكن القرابين عند ذلك الشعب جُعِل لها دور مختلف وأُضفي عليه معنى مغاير.

في المقام الأول، اقتصرت القرابين عند بني إسرائيل على تقديم الحيوانات (من بقر وغنم وحملان ومعزى وثيران وحمام أو يمام) وثمار الأرض (من دقيق وزيت وخمر ولُبان)، ولم تكن تُقدم إلا للرب الإله. فقد كان محرماً تقديم البشر، وشرب الدم، وتشويه الجسد. علاوة على إن جميع القرابين المقدمة للأصنام، وللأموات، وللحيوانات "الطاهرة"، كانت انتهاكاً لمشيئة الله. وفي المقام الثاني، كانت القرابين عند إسرائيل أقل أهمية من الشرائع الأدبية. فالاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش. والرب يريد رحمةً لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من المحرقات. وفي المقام الثالث، كانت القرابين في إسرائيل مثل الكهنوت والهيكل والمذبح وكامل التدبير الطقسي وفقاً لخدمة الوعد. فالقرابين لم تُنتج عهد النعمة، لأن ذلك العهد مؤسس فقط على اختيار الله المقرون بالنعمة؛ بل إنها عملت فقط على إبقاء ذلك العهد نافذاً في إسرائيل، وعلى توطيده أيضاً.

وكما أن شعب العهد القديم كله كان مملكة كهنة بفضل دعوة الله واختياره (خر ١٩:٦)، الكهنوت كان مجرد وضع ثانوي عارض، فكذلك تماماً كانت القرابين (ولاسيما ذبائح المحرقة والخطية والإثم) مجرد رموز طقسية إلى الطريقة التي بها يمكن الصفح عن الخطايا التي ارتكبها بنو إسرائيل ضمن نطاق العهد (والتي ارتكبوها لا عمداً دون حياء بل سهواً دون قصد) فإن الخطايا العمدية الفادحة، تلك التي نقضت العهد وأثارت غضب الله، وإن كانت غالباً ما نالت عقابها مدنياً، لم يكن لها إلا اللجوء إلى رحمة الله الذي جاد بالصفح عنها، ولو كان أحياناً بعد تدخل أشخاص كإبراهيم (تك ١٨:٢٣ – ٣٣) أو موسى أو فينحاس (عد ٧:٤ – ٦ ؛ قارن إر ١٥:١).

فبهذه الخدمة الطقسية الشاملة، أرشد الله شعبه إلى المقام الأول بالإحساس أن عهد النعمة، بكل بركاته وخيراته، إنما هو بفضل الرحمة وحدها. فأصله وأساسه في الرأفة غير المبنية على الاستحقاق : أتراءف على من أتراءف، وأرحم من أرحم (خر ٣٣:١٩). ثم إن الرب، بهذه الفرائض الطقسية، جعل بني إسرائيل يفهمون أنه يمنه نعمة غفران الخطايا فقط عن طريق الكفارة. بعبارة أخرى، إن الخطية دائماً شيء يثير غضب الله ويجعل الإنسان مذنباً ودنساً. فالقربان إذاً أمرٌ لا بد منه عموماً لتسكين غضب الله، وتحرير الإنسان من ذنبه ودنسه، وجعله يتمتع من جديد برضوان الله والشركة معه. طبعاً، كانت هنالك خطايا لم تحدد الشريعة بخصوص أي قربان معين كوسيلة تفكير. فقد كانت الكفارة متروكة لله نفسه، إن صح التعبير. إذ أنه هو بالذات من يكفر في تلك الحالات عن الخطايا ويصفح عنها بالتالي. والغفران يأخذ على عاتقه الكفارة ويشمل عليها. وفي ما يتعلق بالخطايا

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

المرتكبة سهواً، والتي حددت لها الشريعة قرباناً معيناً، كان الله بالحقيقة هو من يستر الخطايا ويرفعها، بواسطة التقدمة والكاهن والمذبح (لا ١١:١٧ ؛ عد ١٩:٨). فخدمة التفكير بكاملها صادرة عن الله ومرتبة من لدنه.

أما الوسيلة الحقيقية للتفكير والمصالحة، فقد كانت دم الحيوان المقرّب ذبيحة. فإن حياة الجسد هي في الدم، أي مقر مبدأ الحياة في الحيوان، ولذلك أعطاها الرب على المذبح بوصفه العنصر الذي يكفر عن النفس (لا ١١:١٧). ولكن لكي يؤدي الدم دوره بوصفه عامل تفكير، كان ينبغي أن يُذبح الحيوان ويسفك دمه بالموت ثم يرش على المذبح بيد الكاهن، وذلك بعد أن يأتي الشخص الذي أخطأ بذلك الحيوان إلى المذبح، حيث يضع على رأس الحيوان يده (على سبيل الإنابة)(خر ١٥:١٩ وما يليها). وفي وضع اليد والذبح ورش الدم على المذبح ما يشير إلى الطريقة التي صار بها الدم – هو عنصر الكفارة. حتى إذا كفر الدم على هذا النحو عن الخطايا، وسترها وأزالها، فعندئذ كان الذنب يغفر، والدنس يطهر، وشركة العهد مع الله تعود. ثم إن الكهنة والشعب، والهيكل والمذبح، وجميع أواني الخدمة، هذه كلها كانت تتطهر بالدم وتُقدس جميعاً لكي يسكن الرب في وسط بني إسرائيل ويكون لهم إلهاً (خر ٤٣:٢٩ – ٤٦).

على إن خدمة القرابين هذه بكاملها لم تكن إلا ظل الخيرات العتيدة ولا تدل إلا على ذلك الظل فقط (عب ١:١٠). ولم تكن الخيمة في البرية إلا رمزاً للمقدس الحقيقي (عب ٥:٨). وقد كان الكهنة أنفسهم خطاة وكان يلزم أن يكفروا عن أنفسهم أيضاً، لا عن الشعب وحسب (عب ٢٧:٧ ؛ ٧:٩)، ثم إن الموت أيضاً منعهم من الاستمرار كل حين (عب ٢٣:٧). وما كان في وسع دم الثيران والتيوس أن يزيل الخطايا، ولا أن يطهر الضمير (عب ٩:٩، ١٣ ؛ ٤:١٠). من هنا كان ينبغي أن يؤتى بتلك الذبائح مراراً وتكراراً (عب ١:١٠).
وبالاختصار، كان كل ذلك خارجياً وضعيفاً وغير نافع وليس بلا عيب (عب ١٨:٧ ؛ ٧:٨)، وقد أشار إلى مستقبل أفضل. وعلى مر القرون تعلم أتقياء الشعب هذه الحقيقة بصورة فضلى، وتاقوا إلى الأيام التي يقيم فيها الرب عهداً جديداً، حين يأتي الرب نفسه بالكفارة الحقيقية ويجعل شعبه يشتركون في بركات الغفران وخيرات التجديد. ويصيب هذا الرجاء أجمل تعبير عنه في إشعياء على الأخص. فكتاب العزاء في أشعياء يستهل بإعلام أورشليم أن جهادها قد كمل، وأن إثمها قد أعفي عنه، وأنها قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها (إش ٢:٤٠). ومن ثم يميط إشعياء اللثام عن النبوة المختصة بعبد الرب الذي يحمل بنفسه أسقامنا وأحزاننا ومعاصينا وآثامنا، متحملاً القصاص، وهكذا يؤتينا الشفاء والسلام (إش ٢:٥٣ وما يليها).

****

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ثم إن العهد الجديد، على وفاق تام مع العهد القديم، يرى في موت المسيح قرباناً عن خطايانا. فالمسيح لم يقل فقط أنه جاء ليكمل الناموس والأنبياء وكل برّ (مت ٣:١٥، ٥:١٧)، بل طبق على نفسه أيضاً نبوءة إشعياء حيث تصفه بأنه عبد الرب الممسوح بروح الرب والمرسل ليبشر المساكين (لو ٤:١٧ وما يليها). فقد جاء، وفقاً لوصية الآب، كي يضع حياته ثم يأخذها، باذلاً حياته عوضاً عن خرافه، وبموته صار جسده مأكلاً حق ودمه مشرباً حق يفيضان إلى الحياة الأبدية. فإن موته هو القربان الحقيقي والإتمام الكامل للقرابين التي قُدمت كلها في أيام العهد القديم بمقتضى المرسوم والشريعة.

فيما بعد، فإن موت المسيح هو عمل الخضوع الأكمل لمشيئة الآب، وهو بيّنة على أنه جاء لا ليُخدم بل ليخدم. وهو بذلك فدية دُفعت في سبيل تحرير كثيرين من سلطة الخطية التي كانوا رازحين تحتها (مت ٢٠:٢٨). كما أن موت المسيح هو الإتمام لذبيحة العهد التي قُربت توطئة للعهد القديم (خر ٢٤:٧)، وهو الأساس للعهد الجديد (مت ٢٦:٢٨ عب ٩:١٥ – ٢٢). ويدعى موت المسيح قرباناً وذبيحة (أف ٥:٢ ؛ عب ٩:١٤، ٢٦). وهو يحقق مغزى ذبيحة الفصح، وذبيحتي الخطية والإثم، والذبيحة القرّبة في يوم الكفارة العظيم.

ولم تتم في المسيح قرابين العهد القديم فقط، بل أيضاً جميع المطاليب التي كان ينبغي أن تفي بها تلك القرابين وجميع الأفعال المصاحبة لها. فقد كان واجباً على الكاهن الذي يقدم القربان أن يكون رجالاً لا عيب فيه (لا ٢١:١٧ وما يليها). والمسيح هو رئيس كهنة من هذا الصنف – قدّوس، بلا شر ولا دنس، منفصل عن الخطاة (عب ٧:٢٦). وكان واجباً أيضاً أن يكون الحيوان المقرب صحيحاً وخالياً من أي عيب (لا ٢٢:٢٠ وما يليها)، وهكذا المسيح : فهو بلا عيب ولا دنس (١بط ١:١٩). وكما كان واجباً أن يذبح الحيوان المقرّب بيد الكاهن (خر ٢٩:١١)، فهكذا تماماً ذبح المسيح كخروف واشترانا لله بدمه (رؤ ٥:٦ – ٩). ولم يكن يجوز أن يكسر عظم واحد من خروف الفصح (خر ١٢:٤٦)، وهكذا أيضاً مات المسيح بغير أن يكسر أي عظم منه (يو ١٩:٣٦) وكان الكاهن بعد الذبح يأخذ دم الحيوان ويرشه في القدس – إذا كان القربان ذبيحة خطية (لا ١٦:١٥ ؛ عد ١٩:٤)، أو على الشعب – إذا كان ذبيحة سلامه (خر ٢٤:٨). هكذا أيضاً المسيح دخل بدم نفسه مرة واحدة إلى القدس السماوي (عب ٩:١٢)، ورش ذلك الدم على شعبه (١بط ١:٢ ؛ عب ١٢:٢٤). وعندما كانت ذبيحة الخطية تُقرّب كان يؤتى بدم الحيوان إلى القدس، ولكن جسمه كان يحرق بالنار خارج المحلّة (لا ١٦:٢٧) فبالطريقة نفسها تألم المسيح خارج الباب، لكي يقدس الشعب بدم نفسه (عب ١٣:١٢). وكما أنه بموجب شريعة العهد القديم، صار الدم – باعتباره مقر النفس وبكونه يسفك بالموت ويُرش على المذبح – هو العنصر المناسب للتكفير، فكذلك أيضاً في العهد الجديد دم المسيح هو العامل الفعّال في التكفير عن خطايانا وغفرانها وتطهيرنا منها.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

صحيح أن العهد الجديد، عندما يتحدث بهذا المعنى عن آلام المسيح وموته كذبيحة، يستخدم لذلك تصويراً بيانياً، ويستعير الألفاظ المألوفة في سياق نظام القرابين والذبائح في العهد القديم. ولكن لا ينبغي أن نستنتج من هذا الواقع أن مثل هذا التمثيل هو عرضي ومجازي، بحيث يمكننا أن نصرف النظر عنه بغير حرج. بل على نقيض ذلك، تنطلق الكلمة المقدسة بالتحديد من فكرة كون القرابين في العهد القديم رمزاً وظلالاً لذبيحة المسيح التي جاءت إتماماً لها. فكما أن المسيح كان بالفعل نبياً وكاهناً وملكاً، ولم يكن كذلك من قبيل المقارنة أو المجاز وحسب، فكذلك أيضاً بالتمام لو يكن تسليم نفسه للموت ذبيحة بالمعنى المجازي بل كان كذلك بكل ما للكلمة من معنى جوهري دقيق. إذاً، لا يمكننا أن نستغني عن اعتبار موت المسيح ذبيحة حقيقية. فالاستغناء عن هذه الكلمة (ذبيحة) يعني في الحال تضييعاً للحقيقة أيضاً. وتلك الحقيقة هي أهم جميع الحقائق بالنسبة إلينا، لكونها مصدر الخلاص.

ثمّ إنّ اعتبار موت المسيح قرباناً أو ذبيحة، يعد ضمناً أنّه أسلم نفسه للّه ذبيحةً وقرباناً رائحةً طيبة (أف ٥ :٢) حيث أنّ المسيح كان عطيّةً من الله وبرهاناً على محبّته (يو ٣:١٦). والله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا (رو ٥:٨). وهو لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين (رو ٨:٣٢). كما أن في ولادة المسيح وحياته، وآلامه وموته أيضاً، ما يبين محبة الله ويؤكدها لنا. غير أن محبة الله هذه لا تطرح عدله جانباً، بل إنها بالأحرى – إذا نظرنا إليها كما ينبغي – تتضمن بحد ذاتها على هذا العدل ذلك أنها محبة لا تجرد الخطية من طبيعتها باعتبارها خطية، ولكن تدبر لها وسيلة للغفران عن طريق الكفارة. فكان ينبغي أن يموت المسيح طبقاً لوصية الآب، وأنه بموته استوفى عدل الله وحقه. ففي موت المسيح، حافظ الله بالتمام على عدله في صفحه عن الخطايا التي سبق أن ارتكبت، إذ كانت أناة الله تنتظر، وفي الوقت عينه فتح بنفسه الطريق التي بها يبرر جميع الذين ينتمون إلى المسيح بالأيمان.

ومن ناحية أخرى، نجد في ذبيحة المسيح برهاناً على طاعته بصورتيها "المذعنة" و"الفاعلة". وقد حظيت الطاعة المذعنة، في أزمنة سالفة، بتصدر الواجهة، بحيث أن الطاعة الفاعلة اختفت وراءها فعلاً. ولكن الطاعة الفاعلة لقيت منذ عهد قريب تشديداً بالغاً، إن الطاعة المذعنة لم تنل قسطها الواجب. على أن الطاعة بوجهيها بمقتضى الكلمة المقدسة، يسيران جنباً إلى جنب، وينبغي أن يُنظر إليهما باعتبارهما وجهين لعملة واحدة. كان المسيح كل حين، منذ الحبل به وولادته فما بعد، مطيعاً للآب. وعلينا أن ننظر إلى حياته كلها كتحقيق لعدل الله وشريعته ووصيته. فعند دخوله للعالم، قال : هأنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله (عب ١٠:٥ – ٩). ولكن تلك الطاعة أظهرت ذاتها على نحوً كامل أولاً في موته، بل على نحو أخص في موت الصليب (في ٢:٨). والعهد الجديد مليء بهذه الحقيقة : أنه بتألم المسيح وموته كُفرّ ولأول مرة عن الخطية وغفرت ورُفعت. بل عمل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مشيئة الآب التي كان على المسيح أن يفعلها وفي هذا ليس فقط إكمال الناموس بل حمل الذنوب أيضاً.

ومن ثم وفي المقام الثالث هنا أيضاً ارتباط ذبيحة المسيح بخطايانا. وقد سبق لنا أن قرأنا في العهد القديم أن إبراهيم قدم محرقةً عوضاً عن ابنه (تك ٢٢:١٣)، وأن العبراني بوضع يده على رأس الحيوان المقرّب كان يقدمه بديلاً منه (مثلاً لا ٤:٢٩)، وأن عبد الرب قد جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل آثامنا (إش ٥٣:٥). فعلى المنوال نفسه يقيم العهد الجديد علاقة وثيقة جداً بين المسيح وخطايانا. فابن الإنسان قد جاء إلى العالم ليبذل نفسه فديةً عن كثيرين (مت ٢٠:٢٧ ؛ ١تي ٢:٦). وهو قد أُسلم من أجل خطايانا (رو ٤:٢٥)، ومات بالنظر إلى خطايانا، أو بالأحرى بسبب خطايانا ولأجلها.

إن الشركة التي ارتضى المسيح أن تكون لنا معه، بحسب الكتاب المقدس، فهي بالغة العمق والخصوصية بحيث يصعب تكوين صورة لها أو فكرة عنها. وما العبارة "الآلام النيابية" إلا محاولة للتعبير عن معنى المشاركة، ولو على نحو هزيل وناقص. إذ أن الحقيقة الكاملة تسمو فوق خيالنا وأفكارنا. صحيح أن في وسعنا أن نرسم بعض التشبيهات التي يمكن أن تقنعنا بإمكانية هذه المشاركة. فنحن نعرف عن آباء يتألمون مع أولادهم ويعانون معاناتهم؛ وعن أبطال يبذلون أرواحهم في سبيل أوطانهم؛ وعن أناس شرفاء، من رجال ونساء، يزرعون ما يمكن لسواهم أن يحصدوا، وفي كل مرة نرى سريان القاعدة بأن نفراً قليلاً يعملون ويجاهدون ويحاربون لكي يجني الآخرون ثمر جهادهم ويتمتعون بخيراته. وربما كان موت امرئٍ حياة لآخر. ولا بد أن تموت حبة الحنطة في سبيل أن تأتي بثمر. والأم تلد طفلها بالآلام. إلا أن هذه كلها لا تعدو كونها تشبيهات تقريبية، ولا سبيل إلى مساواتها بالمشاركة التي ارتضى المسيح أن تكون له معنا. فحقاً أنه بالجهد يموت أحد لأجل بار، بل ربما تجاسر أحد أن يموت لأجل إنسانٍ صالح. ولكن الله بيّن محبته لنا لأنه، ونحن بعد خُطاة، مات المسيح لأجلنا (رو ٥:٧، ٨).

في الواقع لم تكن بيننا وبين المسيح أيّة شركة، بل كان بيننا وبينه مجرد انفصال ومناقضة. فإنه كان هو الابن الوحيد والحبيب عند الآب، ونحن كنا جميعاً كالابن الضال. هو بار وقدّوس وبلا خطية، ونحن خطاة ومذنبون أمام الله ونجسون من هامة الرأس إلى أخمص القدمين. ورغم ذلك كله، ارتضى المسيح أن يكون شريكاً لنا، لا بمعنى طبيعي (مادي) وحسب، أي باتخاذه طبيعتنا، لحمنا ودمنا، بل أيضاً معنى قضائي (شرعي) ومعنى خُلقي (أدبي)، وذلك بالاشتراك معنا في تحمّل خطيتنا وموتنا. فهو يقوم مقامنا، ويجعل نفسه مكاننا من جهة علاقتنا بشريعة الله، ويحمل بنفسه ذنوبنا وأمراضنا وأحزاننا وقصاصنا. فالذي لم يعرف الخطية، جُعل خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه (٢كو ٥:٢١). ونقرأ عنه أنه صار لعنةً لأجلنا ليفتدينا من لعنة الناموس (غل ٣:١٣). وهو قد مات لأجل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الجميع، كي يعيش الأحياء في ما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات من أجلهم وقام (٢كو ١٥:٥).

ذلك هو سر الخلاص،سر المحبة الإلهية، ولا قدرة لنا بأن نفهم آلام المسيح النيابية، لأننا – ونحن مبغضون لله ولبعضنا البعض – لا نستطيع الاقتراب أبداً من أن نجري حساباً لما يمكن أن تُقدّر المحبة المرء على فعله، وما يمكن أن تنجزه المحبة الإلهية الأزلية غير المحدودة. ولكن لا يُطلب منا أن نسبر أغوار هذا السر أيضاً. إنما نحتاج فقط لأن نؤمن به شاكرين ونستريح في رحابه ونفتخر فيه ونبتهج. فالمسيح قد جُرح لأجل معاصينا، وسُحق لأجل آثامنا وكان تأديب سلامنا عليه، وبحبه شُفينا. كلنا كغنم ضللنا، مِلنا كل واحد على طريقه؛ والرب وضع عليه إثم جميعنا (إش ٥٣:٥، ٦).

فماذا نقول لهذا؟ إن كان الله معنا، فمن علينا؟ الذي يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء؟ من سيشتكي على مختاري الله؟ الله؟ هو الذي يبرز، من هو الذي يدين؟ المسيح؟ هو الذي مات، بل بالأحرى قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا (رو ٨:٣١ – ٣٤).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الفصل الرابع

عمل المسيح في ارتفاعه

إن الخيرات التي حققها لنا المسيح بمحبته العظمى هي من الغنى بحيث يصعب احتساب قيمتها أو تقديرها حق قدرها. فهي تشتمل ليس على الأقل من خلاص تام وكامل، وقوام هذه الخيرات الافتداء من أعظم الشرور، أعني الخطية مع جميع عواقبها من شقاء وبؤس وموت؛ ومنح الخير الأسمى، وهو الشركة مع الله بكل ما تنطوي عليه من بركات. وسوف يتسع المجال في ما بعد للنظر في هذه البركات بالتفصيل. إنما لا بد من المرور بها هنا مرور الكرام إذا شئنا أن نفهم عمل المسيح بأعمق معانيه ودلائله.

فالكفارة هي الفضل العظيم الرئيسي من بين جميع الخيرات التي نحن مدينون بها لاتضاع المسيح العميق. ويتضمن معنى لفظة "الكفارة"، كما هي مستعملة في العهد الجديد، الستر والتغطية والتعويض. وهي ترجمة لكلمتين في اللغة الأصلية، توجد أولاهما بصورة أو بأخرى في رومية ٣:٢٥ وعبرانيين ٢:١٧ و١يوحنا ٢:٢ و٤:١٠. ومعنى هذه الكلمة أصلاً هو "التغطية"، وهكذا فهي تشير إلى التعويض عن الخطايا بواسطة الذبيحة (لأن الدم هو مقر الحياة، فإذا سفك ورُش كان العنصر المناسب للتكفير) يستر الخطية (الذنب والدنس) المنسوبة إلى الشخص الذي يقرّب الذبيحة، يسترها عن وجه الله، وهكذا يحجب بفضل فاعليته غضب الله المثار. فبسبب سفك الدم ورشه اللذين بهما تزهق حياة حيوان بريء وخالٍ من العيب، إذ إن النفس في الدم، يطرح الله غضبه جانباً ويتبدل موقفه من الخاطي، ويصفح عن معصيته، ويقبله من جديد في رحاب حضرته وشركته. عندئذ تكون المغفرة التي تحصل بعد التكفير كاملةً بحيث يمكن أن تدعى محواً للخطايا (إش ٤٣:٢٥ ؛ ٤٤:٢٢) وطرحاً لها وراء الظهر (إش ٣٨:١٧) أو في أعماق البحر (مي ٧:١٩). فالكفارة تستر الخطايا كلياً حتى كأنها لو لم تكن. وهي تصرف الغضب وتجعل وجه الله يشرق على شعبه بالرضى الأبوي والمسرة الصالحة.

وهذا كله في العهد القديم إنما يشير إلى ذبيحة المسيح الآتية. فالمسيح هو رئيس الكهنة الذي بدمه الكفاري يستر خطايانا عن وجه الله، ويحول عنا غضبه، ويمتّعنا بنعمه ورضاه. والرب يسوع ليس محقق التكفير فقط، بل إنه هو الكفارة (رو ٣:٢٥ ؛ ١يو ٢:٢ ؛٤:١٠). وبصفته رئيس الكهنة، فهو بديل لدى الله لأجل خيرنا، مكفّراً خطايا الشعب (عب ٢:١٧). حقاً أن كثيرين يرفضون فكرة المصالحة هذه الموضوعية بين الله وبيننا بواسطة المسيح. فهؤلاء يقولون إن الله محبة، وإنه لا يطلب مصالحة، وإن كفارة كهذه لا تناسب إلا مفهوماً عن الله بدائياً وناموسياً خليقاً بالعهد القديم، وهم يذهبون إلى أن هذه الفكرة يدينها العهد الجديد وينحيها جانباً. غير أن هؤلاء ينسون أن الخطية، بسبب طبيعتها المتصفة بالذنب

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

والدنس، تثير غضب الله وتستحق العقاب لا تحت شريعة موسى فقط، بل خارجها أيضاً، وفوقها، وفي العهد الجديد. إنهم ينسون أن المسيح وقربانه الواحد ليسا فقط عطيّة محبة الله وإعلانها، بل هما أيضاً عطية عدالته وإعلانها (أع ٢٨:٤ ؛ رو ٢٥:٣)، كما يتناسون أن محبة الله الغافر لا تستبعد الكفارة بل بالأحرى تستدعيها وتؤيدها. ذلك أن المغفرة هي دائماً عمل من أعمال الله اختياري ومقترن بالنعمة كلياً. وهكذا فهي تستلزم شرطاً مفاده أن لله الحق في القصاص، وينبغي بالتالي أن تشتمل على ذلك النوع من الصفح الذي يتوافق مع الحفاظ على العدالة. فإن انطلق المرء إذاً من إنكار حق الله في القصاص، فهو لا يسيء فقط تمثيل طبيعة الخطية الأثيمة وغير المقدسة، بل إنه يرفض أيضاً أن تجري محبة الله الغافر المنعمة في مجراها. إذ ذاك تبطل الكفارة أن تكون عملاً شخصياً اختيارياً كريماً، وتتحول إلى عملية طبيعية. على أن الكلمة المقدسة تُعلّم أن صهيون تُفدى بالحق والبرّ، وأنّ المسيح قد وفى مطالب الحق والبر بقربانه الواحد، كما صرف عنا غضب الله الذي أثارته خطايانا.

وهذه المصلحة هي أيضاً شيء موضوعي وملموس. فهي ليست أمراً يبرز إلى الوجود أول مرة بفضل إيماننا وتوبتنا، بل إنها ترتكز على عمل التعويض (وفاء الدين) الذي أتمّه المسيح. وقوام هذه المصالحة إحداث علاقة بين الله وبيننا، مقترنة بالنعمة، على أن نتلقاها نحن ونقبلها بالإيمان (رو ١١:٥). فلأن الله قد نحا جانباً موقف المعاداة اتجاهنا على أساس موت المسيح، تحضنا نحن أيضاً على تنحية أعدائنا وعلى التصالح مع الله والدخول في علاقة المصالحة الجديدة التي فيها وضع الله نفسه قبالتنا. إن كل شيء قد أُعد وانتهى. ولم يبقَ لنا نحن أيّ شيء لنعمله. ففي وسعنا، من كل النفس وفي كل آن، أن نستريح في رحاب عمل الفداء الكامل الذي أنجزه المسيح. ولنا أن نقبل بالإيمان حقيقة أن الله قد نحّى غضبه جانباً، وأنه في المسيح قد أصبح لنا نحن الخطاة المذنبين الدّنسين إلهاً وأباً متصالحاً معنا.

وأي من يقبل بالإيمان بشارة المصالحة هذه مبدئياً ينال في الحال جميع الخيرات الأخرى التي أتى بها المسيح. فإن سائر الخيرات الأخرى المرتبطة بعهد النعمة متضمنة في موقف المصالحة الذي يقفه الله من العالم في المسيح. ولا يخفى أن المسيح واحد ولا يمكن أن ينقسم أو يقبل قبولاً جزئياً. فحلقة الخلاص لا يمكن أن تنكسر. فإن الذين سبق فعيّنهم، فهؤلاء دعاهم أيضاً؛ والذين دعاهم، فهؤلاء بررهم أيضاً؛ والذين بررهم، فهؤلاء مجدهم أيضاً (رو ٣٠:٨). إذاً، جميع الذين صولحوا مع الله بموت ابنه قد نالوا مغفرة الخطايا، والتبني كأولاد، والسلام مع الله، والحق في الحياة الأبدية والميراث السماوي. ولهم مقام الشركة مع المسيح في المحبة، وقد صُلبوا ودُفنوا وأُقيموا معه، وأُجلسوا معاً في السماء، وجُعلوا مشابهين صورته أكثر فأكثر. وهم قد قبلوا الروح القدس الذي يجددهم ويرشدهم إلى جميع الحق، ويشهد لحقيقة بنويتهم كأولاد، ويصحبهم لإلى يوم الفداء النهائي. وفي هذه

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الشركة مع الآب والابن والروح القدس، غدا المؤمنون أحراراً من الناموس، وقد رُفعوا فوق كل سلطة من العالم والموت والجحيم والشيطان. كما أن الله صار معهم، فمن ذا يمكن أن يقف ضدهم؟ (رو ٨:٣١).

****

إن القربان الكامل الذي أنجزه المسيح على الصليب له قوة وقيمة غير محدودتين، بحيث يكفي تماماً للتكفير عن خطايا العالم أجمع. ويربط الكتاب المقدس دائماً العالم كله بالفداء والتجديد. فإن العالم كان غرض محبة الله (يو ٣:١٦). والمسيح جاء إلى العالم لا ليدين العالم بل ليخص به العالم. وبه صالح الله لنفسه العالم، كل ما في السماء وما على الأرض. وعليه، فقد كان المسيح كفارةً لا لخطايا الذين يؤمنون به في زمن معين، بل للعالم كله أيضاً (١يو ٢:٢). وكما أن العالم قد خُلق بيد الابن، فمصيره أيضاً بالتمام سوف يؤول إلى يده بوصفه الابن والوارث لكل شيء (يو ١:٢٩ ؛٢كو ٥:٩ ؛ كو ١:٢٠). ومسرّة الآب هي أن يجمع في المسيح – في تدبير ملء الأزمنة – كل شيء لكيان واحد رأسه المسيح، أي كل ما في السماء وعلى الأرض (أف ١:١٠). ولسوف تأتي أزمنة رد كل شيء، وبحسب وعد الله ننتظر سماوات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر (أع ٣:٢١ ؛ ٢بط ٣:١٣ ؛ رؤ ٢١:١).

وبسبب هذه الكفاية الكلية لذبيحة المسيح لأجل العالم كله، يجب أيضاً أن يكرز ببشارة المصالحة للخليقة كلها. فوعد البشارة هو أن كل من يؤمن بالمسيح المصلوب لن يهلك بل تكون له الحياة الأبدية. وهذه البشارة ينبغي أن تعلن وتقدم بلا تمييز إلى جميع الأمم والبشر الذين إليهم يُرسل الله الإنجيل بمقتضى مسرته الصالحة. ويجب أن يصحب هذه البشارة تبليغ أمر الله بالتوبة والإيمان. ولا يدع الكتاب المقدس أي مجال للشك في هذا. فقد سبق أن قيل في العهد القديم إن الله لا يسر بموت الشرير بل بأن يتوب ويحيا (حز ١٨:٢٣ ؛ ١١). كما قيل أيضاً هناك أن الأمم ستشارك يوماً في بركات الشعب القديم. ففكرة التبشير متضمنة أيضاً في القصد من عهد النعمة في العهد القديم. غير أنها بلغت أوفى تعبير وأوضحه لما ظهر المسيح نفسه على الأرض وأكمل عمله. فهو نور العالم، والمخلص الذي يعطي العالم حياةً، وله خِراف أُخر ليست من حظيرة إسرائيل ينبغي أن يأتي بها أيضاً (يو ١٠:١٦). ولذلك يُنبئ ويأمر بأن يبشر في الإنجيل في العالم أجمع.

حتى إذا انطلق الرسل بعد يوم الخمسين حاملين هذه البشارة إلى اليهود والأمم على السواء، ومؤسسين الكنائس في كل مكان، يمكن القول : إلى جميع الأرض خرج صوتهم، وإلى أقاصي المسكونة أقوالهم (رو ١٠:١٨)، وإن نعمة الله المخلصة قد ظهرت لجميع الناس (تي ٢:١١). والواقع أن التضرع لأجل جميع الناس، ولاسيما الملوك وذوي المناصب. هو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أمر حسن ومقبول لدى الله، لأنه يريد لجميع الناس أن يخلصوا ويقبلوا إلى معرفة الحق (١تي ٢:٤). وما تأنّي المسيح في رجوعه سوى دليل على طول أناة الله، إذ لا يشاء أن يهلك أحد من الناس بل يقبل الجميع إلى التوبة (٢بط ٣:٩).

ولعمومية الكرازة بالبشارة حسناتها بالنسبة إلى العالم بأسره وإلى الذين ما كانوا ليؤمنوا البتة بالمسيح مخلصاً لهم. ذلك أن المسيح بتجسده شرّف الجنس البشري كله، وصار أخاً لجميع الناس حسب الجسد. فهوذا النور قد شع في الظلمة، وبمجيئه إلى العالم ينير كل إنسان. وبه كون العالم – هذه حقيقة ثابتة لا تتغير، مع أن العالم لا يعرفه (يو ١:٣ – ٥). وبالدعوة إلى الإيمان والتوبة يوجهها المسيح إلى كل من يعيشون في زمن الإنجيل، يُقدم عدة بركات خارجية، في البيت والمجتمع، في الكنيسة والدولة، وهذه أيضاً يتمتع بها الذين لا يطيعون الإنجيل في قلوبهم. فإن هؤلاء يقعون ضمن نطاق الكلمة الأزلي، ويحمون من خطايا رهيبة، وعلى خلاف الأمم الوثنية يشتركون في عدة امتيازات خارجية. ثم لا ينبغي أن ننسى أن المسيح، بآلامه وموته، ضمن اعتاق المخلوق من عبودية الفساد، وتجديد السماء والأرض، وردّ كل شيء ومصالحة جميع الأشياء فيما بينها، وكذلك جميع الملائكة وجميع البشر أيضاً. ففي المسيح تصان وتستعاد الوحدة العضوية للجنس البشري وللعالم بوصفه خليقة الله (أف ١:١٠ ؛ كو ١:٢٠).

ومهما شددنا على التمسك بهذه العمومية المطلقة المتعلقة بالتبشير بالإنجيل، لا يجوز أن نستنتج منها أن بركات المسيح تم إنجازها وقُدرت لكل إنسان فرد. فمثل هذا الاستنتاج يناقضه على نحو حاسم كون الله في أيام العهد القديم قد ترك الأمم يسلكون طرقهم الخاصة واختار شعباً واحداً ليكون له. كما يناقضه أيضاً واقع كونه – في ملء الزمان وبصرف النظر عن شمولية الكرازة بالإنجيل مبدئياً – قد قصر مواعيد نعمته على جزء يسير من البشر على مر العصور.

فالتصريحات العامة الموجودة هنا وهناك في الكلمة المقدسة لا يمكن أن يحملها أحد على أنها مطلقة، بل ينبغي أن يحملها الجميع على أنها نسبية. فهي جميعها قد كُتبت في ظل الانطباع البالغ الأثر بالفرق بين تدابير العهدين القديم والجديد. ومع أننا لا نكاد نتصور الأمر بعد، فإن الرسل الذين نشأوا في ظلال خصوصية اليهودية قد شعروا أعمق شعور بالتغيير الهائل الذي أدخله المسيح على علاقة جميع الأمم فيما بينها. فهم يتحدثون عن هذا الواقع دائماً باعتباره سراً عظيماً كان مكتوباً على مدى العصور السالفة لكنه أُعلن الآن للرسل والأنبياء القديسين بوحي الروح القدس. فقد رأوا سراً في أن يكون المؤمنون بالمسيح من الوثنيين شركاء في الميراث ضمن الجسد الواحد وأن تكون لهم شركة في العد بالمسيح. فحائط السياج المتوسط قد نُقض. ودم المسيح قد صنع السلام. وفي المسيح لا فرق بين يهودي ويوناني، ولا بين بربري وسكيثي. فها قد سقطت كل الحدود الفاصلة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

العائدة إلى اختلاف الأوطان والألسنة، والأعراق والألوان، والأعمار والأسر، والزمان والمكان. وكل ما يهم في المسيح هو الخليقة الجديدة. والكنيسة مجموعة من بين كل قبيلة ولسان وشعب وأمة.

ولكن ما إن يتوجه الكتاب المقدس للنظر في هذه المسألة "لمن أنجز المسيح خيراته، ولمن يهبها وعلى من يغدقها، ومن يشترك فيها فعلاً؟" حتى ينيط عمل المسيح بالكنيسة دائماً. فكما كان في العهد القديم شعبٌ خاص اختاره الله وارثاً له، كذلك تماماً تظل هذه الفكرة المتعلقة بوجود شعبٍ لله خاص به ساريةً في العهد الجديد. صحيح أن شعب العهد الجديد لم يعد محصوراً بعد بنسل إبراهيم من الناحية البشرية. فهو الآن – على نقيض ذلك – مؤلف من اليهود والأمم ومن جميع الشعوب والقبائل المختلفة. إلا أن كنيسة العهد الجديد هذه هي الآن الاجتماع الحقيقي لشعب الله (مت ١٦:١٨ ؛ ١٨:٢٠) ومحفل شعب الله في العهد الجديد (٢كو ٦:١٦) ونسل إبراهيم الحقيقي (رو ٩:٨ ؛ غل ٤:٢٩). لأجل هذا الشعب سفك المسيح دمه وأنجز الخلاص. فهو قد جاء ليخلص شعبه (مت ١:٢١) ويبذل نفسه عن الخراف (يو ١٠:١١) ويجمع أبناء الله المتفرقين إلى كيان واحد (يو ١١:٥٢) ويعطي الحياة لجميع الذين أعطاه الآب إياهم ويقيمهم في اليوم الأخير (يو ٦:٣٩ ؛ ١٧:٢)، ويقتني كنيسة الله بدمه، وكي يقدسها ويطهرها بغسل الماء، أي بالكلمة (أع ٢٠:٢٨ ؛ أف ٥:٢٥، ٢٦). وبوصف المسيح رئيس كهنة فهو يصلي لا لأجل العالم كله بل لأجل الذين أعطاه الآب إياهم والذين سوف يؤمنون به من خلال كلام الرسل (يو ١٧:٩، ٢٠).

وبالتالي، فإن بين عمل الآب والابن والروح القدس أكمل التوافق. فجميع الذين اختارهم الآب، اشتراهم الابن، وولدوا ثانيةً بالروح القدس الذي به يتجددون. ويفيدنا الكتاب المقدس بصراحة، بل بكل صراحة، أن هؤلاء كثيرون، بل كثيرون جداً. والكتاب يعلمنا هذا لا لكي نحدّ هذا العدو ونقيده، مستعملين بصيرتنا الناقصة ومعيارنا الكيفي، بل لكي يتأكد لنا يقيناً – في وسط النزاع والضلال – أن الخلاص من أوله إلى أخره هو عمل الله، وأن هذا العمل بالتالي لابد أن يكمل رغم كل مقاومة. فإن مسرة الربّ ستنجح على يد عبده، لا محالة (إش ٥٣:١٠).

ولما كان عمل الخلاص هو عمل الله وحده دون سواه، فإن خيرات المسيح وبركاته ما كانت لتصلنا لو لم يكن أُقيم من بين الأموات وجلس مرّفعاً في مجد عن يمين الله. فإن موت يسوع كان يكفينا لو كانت المسيحية لا تعدو كونها مجرد عقيدة نعتنقها بعقولنا، أو مجرد مثال أدبي ونموذج خلقي علينا أن نحتذيه. غير أن الديانة المسيحية هي شيء آخر مختلف جداً عن هذا وأكثر منه كثيراً. إنها الفداء الكامل للإنسان بجملته، وللكيان البشري عامة، وللعالم بكامله. وجاء المسيح إلى الأرض لكي يخلص العالم، بهذا المعنى الكامل. لم

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

يأتِ كي يحقق إمكانية الخلاص لنا جميعاً ثم يترك لإرادتنا الحرة مسألة الاستفادة من هذه الإمكانية، أو عدم الاستفادة منها. لكنه بدلاً من ذلك وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب، لكي يخلصنا حقاً خلاصاً أبدياً كاملاً.

من هنا، لم ينتهِ العمل عند موته ودفنه. حقاً أنه في صلاته لأجل إتباعه بوصفه رئيس الكهنة، قال أنه قد أكمل العمل الذي أعطاه الآب ليعمله (يو ١٧:٤)، وأنه صرخ على الصليب قائلاً : قد أُكمل (يو ١٩:٣٠). ولكن أقوالاً من هذا النوع كانت تشير إلى العمل الذي كان ينبغي أن يعمله المسيح على الأرض. فقد أشار بها إلى عمل اتضاعه وإنجاز الخلاص. وحقاً أن ذلك العمل قد تمّ وأنه كامل تمّ. فبموت المسيح أنجز الخلاص على النحو الأكمل بحيث لا حاجة بأي مخلوق، ولا قِبل له، أن يزيد عليه أي شيء. غير أن إنجاز الخلاص يجب أن يميز من تطبيقه وتوزيعه. وهذان الأخيران ضروريان كذاك الأول. فماذا ينفعنا كنز من النفائس إذا ظل بعيداً عن متناول يدنا دائما ولم يوضع قط في حوزتنا؟ وأي خيرٍ لنا في مسيح مات حقاً من أجل خطايانا لكنه لم يقم قط لأجل تبريرنا؟ وماذا يكون نفع ربٍّ مات لكنّه لم يرّفع إلى يمين الآب؟

على أننا نحن المسيحيون، نعترف ونبتهج بربٍّ مات لكنه في الوقت نفسه ربٌّ مُقام، بمخلصٍ متّضع لكنه أيضاً ممجد، بملك هو الأول لكنه أيضاً الآخر، بمسيح مات لكنه الآن حيّ إلى الأبد وله مفاتيح الهاوية والموت (رؤ١:١٨). فالمسيح بعد موته قام وعاش أيضاً لكي يسود على الأحياء والأموات جميعاً (رو ١٤:٩). وبارتفاعه يكمل البناء الذي وضع له الأساس بموته. وهو قد أُقيم وأُجلس فوق كل رياسة وسلطان وقوة سيادة، وجُعل رأساً للكنيسة فوق كل شيء، لكيما يملأ الكل في الكل (أف ١:٢٠ – ٢٣).وبفضل قيامته جُعل ربّا ومسيحاً، رئيساً ومخلصاً، ليعطي شعبه التوبة ومغفرة الخطايا، وحتى يضيع جميع الأعداء تحت قدميه. وقد رفّعه الله جداً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة، ممن في السماء وممن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ، لمجد الآب (في ٢:٩ – ١١).

فليس ارتفاع المسيح إذاً ملحقاً عارضاً، أو إضافة كيفية، للاتضاع الذي عاناه في أيام جسده. غير أنه، شأنه شأن الاتضاع، عنصر حتمي لا يستغني عنه متمم لعمل الفداء الذي كان للمسيح أن ينجزه. في الارتفاع يبلغ الاتضاع ذروته وتُضفى عليه هويته الحقيقة. فالمسيح الذي نزل إلى أقسام الأرض السفلى هو نفسه صعد أيضاً فوق جميع السماوات لكي يملأ الكل (أف ٤:٩، ١٠). ومثلما أُسد إليه عمل الاتضاع، فكذلك تماماً حال عمل الارتفاع. فينبغي له أن يعمله، إذ أنه عمله هو، ولا أحد سواه يقدر أن يعمله. وقد رفّعه الآب جداً لأنه وضع نفسه إلى آخر حد (في ٢:٩). والآب أعطى كل الدينونة للابن لأنه ارتضى أن يصير ابن الإنسان (يو ٥:٢٢). وقد رُفّع الابن ممجداً، وفي حال ارتفاعه يتابع

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

عمله كي يبرهن أنه هو المخلص الكامل والصادق والقدير. وهو لن يستريح حتى يسلم الآب الملكوت كاملاً وتاماً، ويقدّم إليه العروس، أي الكنيسة، بلا عيب ولا غضن (١كو ١٥:٢٤ ؛ أف ٥:٢٥). وكرامة المسيح بالذات متوقفة على إكماله عمل الخلاص هذا، فاسمه مقرون به وشرفه مُعلقٌ عليه. وهو يرفع خاصته ويأتي بهم إلى حيث يكون هو، لكي ينظروا مجده (يو ١٧:٢٤). وسوف يعود بنفسه في آخر الدهور ليتمجد في قديسيه ويتعجب منه في جميع المؤمنين (٢تس ١:١٠).

****

بحسب إقرار الإيمان عند الكنيسة المصلحة، بدأ ارتفاع المسيح بقيامته. ولكن بحسب كثير من قوانين الإيمان الأخرى، بدأ قبل ذلك، أي بنزوله إلى الهاوية. ولهذا النزول تفسيرات شتى. فالكنيسة الشرقية تعتقد أن ذلك يعني نزول المسيح، بطبيعته الإلهية ونفسه البشرية، إلى العالم السفلي لكي يحرر نفوس الأجداد القديسين ويأتي بها إلى الفردوس، مع نفس اللص التائب على الصليب.

وتذهب الكنيسة الكاثوليكية إلى أن المسيح نزل فعلاً إلى الجحيم بنفسه، وبقي هناك طيلة بقاء جسده في القبر، وذلك حتى يُعتق نفوس القديسين الذين كانوا ماكثين هناك بلا عذاب إلى أن يتم الخلاص، (يُعتقهم) من حالة الموت كي يأتي بهم إلى السماء ويجعلهم يشتركون في غبطة التفرس بالله. وتفرّق الكنيسة اللوثرية بين إحياء المسيح فعلاً وقيامته أو تجلّيه بالجسد بعد القبر، وتعلّم إن المسيح في الفترة القصيرة بين هذين الأمرين قد هبط إلى الجحيم ليُعلن هناك انتصاره للأبالسة والمحكوم عليهم بالعذاب. ويعتقد كثيرين من اللاهوتيين، ولاسيما في الزمن الحديث، أن المسيح قبل قيامته، وساء بنفسه وحدها أم بجسده أيضاً، قد نزل إلى العالم السفلي ليبشر بالإنجيل أولئك الذين ماتوا بخطاياهم ويعطيهم فرصة التوبة والإيمان.

وإن الاختلاف الواضح بالرأي بشأن هذه المسألة ليبرهن أن المعنى الأصلي للتعبير"ونزل إلى الجحيم (أو الهاوية)" قد ضاع. فنحن لا نعرف مصدر هذه العبارة الواردة في قانون الإيمان، ولا ما هو المقصود بها فعلاً. والكلمة المقدسة لا تقول شيئاً عن حصول نزول إلى الجحيم حرفيٍّ وفعليٍّ ومحدّد المكان. وفي أعمال ٢:٢٧ يطبق بطرس كلام المزمور ١٦ على المسيح : "لن تترك نفسي في الهاوية ولا تدع قدوسك يرى فساداً". ولكنه واضح في هذا المقام أن كلمة "هاوية" يجب أن تُفهم بمعنى "القبر". فمع أن المسيح كان في الفردوس بروحه البشرية، فإنه بجسده كان في القبر؛ وهكذا في الفترة الفاصلة بين موته وقيامته كان في حالة الموت. وفي أفسس ٤:٩ يقول بولس إن الذي صعد هو نفسه قد نزل إلاّ إلى أقسام الأرض السفلى. غير أن هذا القول ليس دليلاً على النزول إلى الجحيم، بل بالأحرى إشارة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

إلى التجسد الذي فيه نزل المسيح إلى الأرض في الأسفل، أو إلى موته الذي فيه نزل إلى القبر. ثم إن بطرس في رسالته الأولى ٣:١٩ – ٢١، لا يتحدث بأي حال من الأحوال عمّا فعله المسيح بين موته وقيامته، بل يتكلم بالأحرى عما فعله المسيح بروحه قبل تجسده، في أيام نوح، أو عمّا فعله بعد قيامته إذ كان مُحيىً بالروح فعلاً. فليس الكتاب المقدس أدنى أساس للتعليم القائل بنزولٍ إلى الجحيم محدّد المكان.

وعليه، فإن الكنيسة المصلحة قد نبذت هذا التفسير للعبارة المذكورة من قانون الإيمان، وفسرتها باعتبارها تشير إما إلى الآلام والعذابات الجهنمية التي قاساها المسيح قبل موته، سواء في الجثسيماني أو على الجلجثة، وإما إلى ما يتعلق بحالة الموت التي مرّ فيها المسيح فيما رقد جسده في القبر. وكلا التفسيرين يتلاقيان في الفكرة التي توردها كلمة الله ومفادها أن ساعة تسليم المسيح نفسه للموت إنما كانت ساعة أعدائه وساعة سلطان الظلمة (لو ٢٢:٥٣). فقد علة المسيح أن تلك الساعة كانت آتية، وقد سلم نفسه لها طائعاً مختاراً. وفي تلك الساعة التي فيها أظهر ذروة القوة الروحية في ما يتعلق بمحبته وطاعته (يو ١٠:١٧، ١٨) بدا أنه في مسيس الحاجة إلى من يُعينه. فها هم الأعداء يفعلون به ما شاءوا، والظلمة قد خيمت حوله. وإذا به ينزل إلى الجحيم بالحقيقة، لا بمعنىً مادي الآن، بل بمعنى روحي.

ولكن سلطان الظلمة لم يكن ذاتياً. فإنه قد أعطي من لدن الآب (يو ١٩:١١). ولم يدرك أعداء المسيح أنهم كانوا مجرد أدوات وآلات، وأنهم كانوا – على غير علم منهم وبغير إرادتهم – ينفّذون كل ما سبقت فعيّنت يد الله ومشورته أن يكون (أع ٢:٢٣ ؛ ٤:٢٨). وقد كان المسيح في اتضاعه أيضاً ذلك القدير الذي وضع حياته جانباً بملء حريته وبذل نفسه فدية عن كثيرين. فإن ساعة سلطان الظلمة كانت ساعته الخاصة أيضاً (يو ٧:٣٠ ؛ ٨:٢٠). وفي موته غلب الموت بقوة محبته، وبإنكاره الكامل لذاته، وبطاعته المطلقة لمشيئة الآب. ولذلك ما كان ممكناً، وهو القدّوس، أن يحتويه الموت ويسيطر عليه، ولا أن يتركه الله ويدعه فريسة في قبضة الفساد (أع ٢:٢٥ – ٢٧). بل على نقيض ذلك، فإن الآب أقامه، وهو نفسه قام بحقه الشخصي وقوته الذاتية. وكانت أوجاع الموت، إذا صح التعبير، عبارة آلام مخاض حياة جديدة (أع ٢:٢٤). وهكذا كان المسيح هو البكر من الأموات (كو ١:١٨).

وقد احتوت قيامة المسيح هذه على إحياء جسده الميت ونهوضه من القبر. حتى أن منكري القيامة يتورطون في مشكلة صعبة بالنظر إلى هذه الحقيقة. ففيما مضى حاولوا أن يعلّلوا خبر هذه الحادثة الواقعة بقولهم أن المسيح مات موتاً ظاهرياً فقط، أو إن التلاميذ سرقوا جسده، أو أنهم كانوا في حالة توهّم صرف فخُيل إليهم أنهم رأوه. ولكن جميع هذه التعليلات فقدت التأييد، تعليلاً بعد الآخر. وفي زمن أقرب عهداً إلينا لجأ الكثيرون إلى الروحانية إذ رأوا فيها تعليلاً مقبولاً لقيامة المسيح. فبحسب هذا المذهب يقولون إن شيئاً موضوعياً قد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

حدث بالفعل. وقد رأى التلاميذ شيئاً ما. فالذي يعانوه إنما كان تجلياً للمسيح الذي مات بالجسد لكنه ظل حياً بالروح. ذلك أن روح المسيح ظهرت لهم وتجلت أمامهم. حتى أن بعضهم يُضفون لمسة تقوى على هذا الزعم فيقولون إن الله نفسه هو من جعل روح المسيح يظهر لهم لكي يسكن حزنهم ويؤكد لهم الانتصار على الموت، وعدم فناء الحياة. بكلام آخر، كانت ظهورات المسيح عدّة "برقيات من السماء" تتضمن رسالة إلهية عن قوة المسيح الروحية.

غير أن الرواية الروحانية، أو تحضير الأرواح، لا يعيرها الكتاب المقدس إلتفاتاً كما أنها على طرفي نقيض لشهادته. فبحسب جميع البشيرين، وُجد القبر فارغاً في اليوم الثالث، وحدث الظهور الأول في ذلك اليوم عينه. إذ إن البشيرين وبولس، دون إتباع ترتيب منظم ودون إيراد خلاصات وافية، يفيدوننا أن المسيح ظهر للنسوة، ولاسيما مريم المجدلية، ولبطرس، وللتلاميذ ما عدا توما ثم التلاميذ ومعهم توما؛ ولكثيرين آخرين – لخمس مئة أخ دفعة واحدة. وقد حدثت هذه الظهورات أولاً في أورشليم وقربها، ثم في الجليل حيث كان الرب قد سبقهم، كما يقول مرقس بصريح العبارة (مر ١٦:٧). ويتفق البشيرون جميعاً على أن المسيح ظهر بالجسد نفسه الذي وضعه في القبر. وقد كان جسداً ذا لحم وعظم وليسا للروح (لو ٢٤:٣٩)، وكان يمكن أن يجس (يو ٢٠:٢٧) ويتناول طعاماً (لو ٢٤:٢١ ؛ يو ٢١:١٠).

علاوة على هذا فإن المسيح خلق في الناس انطباعاً بعد القيامة يختلف عما كان قبلها. فالذين رأوه دُهشوا وخافوا وانطرحوا أمامه ساجدين له (مت ٢٨:٩، ١٠ ؛ لو ٢٤:٣٧). وقد ظهر بهيئة أُخرى غير التي ظهر بها قبلاً (مر ١٦:١٢) وأحياناً لم يكن يعرف للتو (لو ٢٤:١٦، ٣١). فيوجد فرق شاسع بين قيامة لعازر وقيامة المسيح. إذ إن لعازر عاد من الموت إلى سابق حياته الأرضية، ولكن المسيح لم يفعل هكذا. فقد قام المسيح رأساً في الطريق المؤدي إلى الصعود. حتى إذا ظنت مريم أن معلّمها وسيدها قد عاد لها من الموت، وأن لها أن تتمتع من جديد بالشركة السابقة معه، صدها قائلاً : "لا تلمسيني، لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن إذهبي إلى إخوتي وقولي لهم : "إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"(يو ٢٠:١٧) فبعد القيامة لم يعد المسيح ينتمي إلى الأرض، بل ينتمي إلى السماء. ولهذا السبب تغيرت هيئته، مع أنه اتخذ الجسد نفسه الذي وُضع في القبر. ويعبر بولس عن هذا القول إنه في الموت يزرع الجسد جسماً حيوانياً (أي طبيعياً) ولكنه في القيامة (قيامة المسيح وقيامة المؤمنين أيضاً) يُقام جسماً روحانياً، أو روحياً (١كو ١٥:٤٤). والجسد في كلتا الحالتين واحد، إذ أن الروحي لا يقارن هنا مع الجسدي، بل مع الطبيعي. ولكن في الجسد الذي أُعطي للإنسان الأول يقع قسماً كبيراً من الحياة خارج نطاق الروح ويتواجد على كيان مستقل تقريباً. وفي الجسد الروحي سيبيد الله "الجوف والأطعمة" (١كو ٦:١٣)، وكل ما هو مادي سيصبح خاضعاً وخادماً للروح.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

****

وليست قيامة المسيح بجسده حادثة تاريخية قائمة بذاتها. فهي تعني غنى لا ينضب معيته، بالنسبة إلى المسيح نفسه وإلى الكنيسة وإلى العالم أجمع أيضاً. فبصفة عامة، تعني القيامة الانتصار على الموت مبدئياً. فإنه بإنسان واحد دخل الموت إلى العالم. فإن التعدي على ناموس الله فتح طريق الموت للبشر، لأن أُجرة الخطية هي موت. لذلك هزيمة الموت تتم بإنسان واحد. فكان لابد أن إنساناً يُحدث القيامة من الموت. حتى ولو كان ملاكاً، بل حتى ولو كان ابن الله بالذات، نزل إلى عالم الموتى ثم من هناك عاد إلى السماء، لما كان ذلك يفيدنا شيئاً. ولكن المسيح كان ابن الله الوحيد عند الآب ليس ذلك فقط، بل كان أيضاً إنساناً حقيقياً وكاملاً. وبصفته إنسان فقد تألم ومات ودُفن، ثم قام وعاد من عالم الموتى. ففي قيامة المسيح تبرهن أنه كان هنالك إنسانٌ لم يكن ممكناً أن يمسكه الموت أو أن يملك عليه الشيطان وسلطان الفساد، إنسانُ كان أقوى من القبر والموت والهاوية. من حيث المبدأ إذاً لم يعد للشيطان بالفعل أيّة سيادة على الموت. فالمسيح بموته غلب الموت (عب ٢:١٤). وإذا كان هو وحده قد قام من القبر وما كان أحد سواه يقوم من القبر، يكون هنالك على أيّة حال إنسان أقوى من الموت. فإن أبواب عالم الموتى التي انغلقت على المسيح كان واجباً أن تنفتح امتثالاً لأمره، إذ لم يكن فيه لرئيس هذا العالم أيّ شيء (يو ١٤:٣٠).

وما دام ذلك كذلك، فمن البديهي أن كل ما يهم بخصوص قيامة المسيح هو بالتحديد أنه قام بجسده. فإن قيامةً روحية غير كافية، إذ تكون نصف نصرٍ وحسب، أي عدم انتصار البتّة بل بالحري هزيمة. وعندئذ لا يكون الإنسان بكامله – من حيث روح وجسد – قد نُقل خارج نطاق سيادة الموت. كما يبقى الشيطان منتصراً في ميدان واسع. وليس ممكناً بحال من الأحوال أن تحدث للمسيح قيامة روحية، أي تجديد أو إحياء روحي، لأنه القدوس الخالي من أي ذنب أو عيب أو خطية. فلكي يبرهن قوته على الخطية كان ينبغي القيام بذلك فقط برجوعه بالجسد من عالم الأموات، وهكذا يبدي قدرته الروحية في عالم المادة. وبقيامته بالجسد، تبرهن أولاً أنه – بطاعته حتى الصليب والقبر – قد قهر تماماً الخطية وجميع عواقبها، بما فيها الموت الذي، إن صح التعبير، رده على أعقابه خارج عالم البشر، وأتى بحياة جديدة لا ينالها الفساد والفناء. فكما أن الموت دخل عالم بإنسانٍ، كذلك جاءت القيامة من الأموات بإنسان أيضاً (١كو ١٥:٢١). فالمسيح هو نفسه القيامة والحياة (يو ١١:٢٥).

يكفي ما تقدم دليلاً على أهمية قيامة المسيح. ولكن يمكن شرح معانيها الغنية بأكثر تفصيل – وأول كل شيء ما تعنيه إلى المسيح نفسه. فلو كان الموت على الصليب هو نهاية حياة المسيح، ولو كانت القيامة لم تتبعه، لكان اليهود على حق في حكمهم عليه بالموت. إذ نقرأ في تثنية ٢١:٢٣ أن الذي يُعلق على خشبة ملعون من الله. والتعليل الوارد في ذلك

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الموضع هو أن جثة المجرم المُعدم ينبغي ألا تبقى معلقة على خشبة الإعدام ليلاً بل يجب أن تُنزل وتدفن في النهار عينه. وإن بقيع معلقة على الخشبة، تنجس الأرض التي أعطاها الرب لشعبه. إنما ناموس موسى لا يحتوي على ظاهرة الصلب. ولكن لّما سُلم المسيح إلى الأمم(مت ٢٠:١٩) وصُلب بأيدي أثمة (أع ٢:٢٣)، فعندئذٍ صار مثلاً – لا بعد موته فقط بل قبله وخلاله أيضاً – مثلاً على قساوة الناموس الشديدة، وعلى صيرورته ملعوناً من الله. وفي نظر اليهود العارفين بالناموس، لو يكن الموت على الصليب عقاباً واقعاً تحت غضب الله ولعنته. من هنا كان يسوع المعلق على الصليب عثرةً لليهود وملعوناً في نظرهم (١كو ١:٢٣ ؛ ١٢:٣).

لكن الآن تأتي القيامة فتحول الإدانة في الاتجاه العكسي. فالذي جُعل خطية لأجلنا والذي لم يعرف أيّة خطية شخصياً. الذي صار لعنة لأجلنا هو مبارك الآب. والذي تركه الآب على الصليب هو الابن الذي سُرّ به جداً. والمرفوض من الأرض هو المتوج في السماء. فالقيامة إذاً هي البرهان على نبوة المسيح. إذ إن الذي صار من نسل داود، من جهة الجسد، قد تبين بقوة أنه ابن الله، من جهة روح القداسة. بالقيامة من الأموات (رو ١:٣، ٤). وقد تكلم المسيح بالحق واعترف الاعتراف الحسن أمام قيافة وبيلاطس البنطي، لمّا شهد بأنه ابن الله. فلم يكن اليهود والرومان على حقٍّ في الحكم على المسيح بالموت، بل تبرهن بالقيامة أن المسيح هو الذي كان على حق. فهو البار الذي سُمر على الصليب بأيدي أثمة وقُتل. والقيامة هي النقض الإلهي الذي أصدره العالم على المسيح.

على أن معنى القيامة بالنسبة إلى المسيح لا يقتصر كونها بيّنة على بنوة المسيح وكونه المسيّا. فقد كانت قيامة المسيح مدخلاً إلى حال حياة جديدة بالكامل، فاتحة لارتفاع تصاعدي دائم. فإن الله قال لمسيح "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك" لا في الأزل فقط (عب ٥:١) ولا عند تعيينه رئيس كهنة وحسب، (عب ٥:٥)، بل في القيامة أيضاً (أع ١٣:٣٣). كأن القيامة هي يوم تتويج المسيح. فقد كان هو الابن والمسيح قبل تجسده. وكانا كذلك أيضاً في اتضاعه. غير أن جوهره كان مستتراً إذ ذاك تحت حجاب صورة عبد. لكنما الآن يعلن الله جهاراً على الملإ أن يسوع هو ربٌ ومسيح، ورئيس ومخلص. والآن يتخذ المسيح من جديد المجد الذي كان له من قبل عند الآب (يو ١٧:٥). بعد هذا يتخذ "هيئة أخرى" أي شكلاً آخر، أو صورة وجود أخرى. فذاك الذي كان ميتاً، عاد حيّاً إلى أبد الآبدين، وله مفاتيح الهاوية والموت (رؤ ١:١٨). وهو رئيس الحياة، وسبب الخلاص، والمعيّن من الله ديّاناً للأحياء والأموات.

ثم إن قيامة المسيح هي ينبوع بركات لكنيسته وللعالم أجمع. فهي بمثابة آمين قالها الآب إزاء عمل الابن الكامل. ذلك أن المسيح أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا (رو ٤:٢٥). فكما أن خطايانا مرتبطة بموت المسيح ارتباطاً وثيقاً، بل بموته (رو ٥:٩، ١٩)،

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

لأن ذلك الموت كان ذبيحة كفّرت عن خطايانا إلى التمام وأتت ببرٍّ أبديٍّ. ولكن لأنه أحرز لنا المصلحة الكاملة والغفران الشامل لجميع خطايانا بآلامه وموته، قام من الموت وكان ينبغي أن يقوم. ففي القيامة ثبت برّه هو، ونحن تبرّرنا معه. وكانت قيامته تصريحاً علنياً بالصفح عنا. وليس هذا كل شيء، بل أُقيم المسيح لأجل تبريرنا أيضاً، بهذا المنى الآخر، حتى يستطيع أن يحسب لنا شخصياً العفو المتضمن في قيامته. فلولا قيامته لما كان ممكناً للمصالحة التي أتمها بموته أن تتحقق وتصير موضوع التطبيق وكأنه برأسمال مجمد. أما الآن فبالقيامة نال المسيح مقام الرب والرئيس المخلص، يستطيع أن يجعلنا نتمتع بالمصالحة الفّعالة، وذلك بالإيمان به. فقيامته إذاً هي، في نفس الوقت ذاته، البيّنة على تبريرنا وعلّة هذا التبرير.

ولكن لما قام المسيح وصار ممكناً أن يُغدق علينا شخصياً المصالحة والمغفرة المنجزتين، فقد تضمن عمله بركةً أخرى. فمثلما لا توجد مغفرة بلا مصالحة سابقة لها، كذلك أيضاً لا مغفرة بلا تقديس وتمجيد لاحقين لها. ويكمن في المسيح بالذات الأساس الموضوعي لهذا الارتباط الوثيق غير المنفصم بين التبرير والتقديس. فالمسيح لم يمت فقط، بل أُقيم أيضاً. والموت الذي ماته قد ماته للخطية (أي بقصد التكفير عن الخطية ومحوها)، بحيث أن الحياة التي يحياها إنما يحياها لله (رو ٦:١٠). فإن حياته الآن تخص الله فقط، بعدما فك بموته أغلال الخطية إلى التمام. ومن هنا أن المسيح عندما يُغدق الآن على شخص ما، من طريق الإيمان، ثمار موته – أعني التوبة والمغفرة أساساً – فهو يعطي ذلك الشخص حياةً جديدة في الوقت عينه. فهو لا يقدر أن يقسم نفسه، ولا أن يفصل موته عن قيامته. وهو بالحقيقة يقدر أن يوزع ثمار موته ويتمتع الإنسان بها لأنه هو نفسه قد قام. فبوصفه رئيس الحياة، له وحده السيطرة على بركات موته كلها. إذا كما أنه هو نفسه قد مات مرة واحدة لأجل الخطية، كي يحيا من ثم لله وحده، هكذا تماماً مات لأجل الجميع في موته، كي يعيش الأحياء (بفضل كونهم قد ماتوا مع المسيح وأُقيموا معه) في ما بعد ليس لأنفسهم، بل للذين مات لأجلهم وقام (٢كو ٥:١٥ ؛ غل ٢:٢٠).

بهذه الطريقة عينها تقوم علاقة ارتباط لا تنفصم عراها بين غفران الخطايا وتجديد الحياة، منظوراً إلى ذلك الآن من الناحية الذاتية. فإن كل من يقبل غفران الخطايا بقلبً مؤمن، يكون بتلك اللحظة قد قطع كل علاقة بالخطية، مثلما فعل المسيح ذلك في موته. إذ إن ذلك الإنسان قد قال للخطية : وداعاً، لأنه لا يمكن إلا أن يكره الخطية (أي بالنسبة إليهما – رو ٦:٢)، ولذلك لا يقدر أن يعيش بعد فيها. فبالإيمان وبالمعمودية كعلامة عليه وختم له، قد دخل في شركة مع المسيح، فصلب ومات ودفن معه، لكي يسلك من ثمَّ في جدّة الحياة (رو ٦:٣ وما يلي).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

ويرتبط بهذا التقديس أيضاً التمجيد. فبالقيامة ولد المؤمنون ثانية" لرجاء حيّ (١بط ١:٣). وبها حصلوا على القناعة الراسخة بأنَّ عمل الخلاص لم يبدأ ويكمّل فقط بل سيتمّم إلى النهاية أيضاً. ففي السماء محفوظ لهم الميراث الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، وعلى الأرض هم بقوة الله محروسون للخلاص العتيد أن يعلن لهم في الزمان الأخير. وكيف يمكن بالحقيقة أن يكون الأمر خلاف هذا؟ فإن الله بين محبته لنا إذ مات المسيح لأجلنا ونحن بعد خطاة. فكم بالأحرى إذاً، وقد تبررنا بدم المسيح، يخلصنا الله من غضبه، ولاسيما الغضب الذي سيستعلن في الدينونة الأخيرة!

فالذين هم في المسيح لا غضب عليهم ولا دينونة، بل فقط لهم سلام مع الله ورجاء مجده. في السابق، لما كانوا أعداءً وعرضةً لغضب الله، صالحهم الله لنفسه بموت ابنه. أما الآن، وقد نحى الله جانباً غضبه اتجاههم وأعطاهم سلاماً ومحبة، فإنه سيحفظهم بالحياة التي للمسيح الآن بفضل قيامته، والتي فيها يقوم بعمله عند الآب شفيعاً لهم (رو ٦:٨ – ١٠). وهكذا تستمر فاعلية قيام المسيح إلى الأبد. وهي في الوقت المعين ستأتي معها بقيامة المؤمنين وإحيائهم والنصرة على السماء والأرض.

عندما نفهم هذه الأهمية الأبدية الغنية التي لقيامة المسيح، عندئذ فقط نقدر السبب الذي عند الرسل، ولاسيما بولس، إلى التشدد كثيراً على صفتها التاريخية. فالرسل جميعاً شهودُ لقيامة المسيح (أع ١:٢٢ ؛ ٢:٣٢). وبولس يستنتج أنه لولا القيامة لكانت كرازة الرسل باطلة وزائفة. فهو يقول إن غفران الخطايا، المؤسس على المصلحة والذي يُقبل بالإيمان، ما كان ليحدث لولا القيامة، كما أن الرجاء بقيامة مجيدة يكون إذ ذاك أمراً عديم الأساس. ولولاها كانت بنوة المسيح الإلهية وهويته المسيويّة ذهبتا أدراج الريح، ولكان هو معلم فضيلة لا أكثر. ولكن ما دامت القيامة قد حدثت، ففيها أعلن الآب المسيح وتوجه بوصفه المكفّر عن الخطايا ورئيس الحياة ومخلص العالم.

****

إن القيامة هي بداءة ارتفاع المسيح، وقد تلاها الصعود بعد أربعين يوماً. وهذه الحادثة وردت بإيجاز. على أن المسيح كان قد سبق وأنبأ بها. وهي من المواضيع التي تضمنتها الكرازة الرسولية. ففي كل موضوع ينطلق الرسل من فكرة كون المسيح – بحسب طبيعته البشرية – هو بالسماء بجسده ونفسه. وعلى كل حال، كانت الأربعون يوماً التي قضاها المسيح على الأرض بعد قيامته إعداداً لصعوده وممراً له. فقد تضافر كل شيء ليبيّن أنه لم يعد ينتمي إلى الأرض بعد. إذ كان على هيئة غير تلك التي كان عليها قبل موته. وكان يظهر ويختفي بطريقة مبهمة. وشعر التلاميذ أن علاقتهم به الآن تختلف عن ذي قبل. لم تعد حياته تنتمي إلى الأرض، بل تخص السماء.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

لقد صار، في الصعود، غير مرئيّ. إنما لم يكن ذلك بعملية تحول إلى حالة روحية ولا بانتقال إلى مقام الألوهة. فالذي حدث كان تغييراً للمكان إذ كان على الأرض، وانتقل إلى السماء. وقد صعد انطلاقاً من مكانٍ محدد، هو جبل الزيتون، ويبعد عن أورشليم مسافة تقل عن كيلو متر واحد في اتجاه بيت عنيا (لوقا ٢٤:٥٠ ؛ أعمال ١:١٢). وقبل أن يفترق عن تلاميذه، باركهم. وقد غادر الأرض وصعد إلى السماء وهو واقفٌ موقف مباركة. فهكذا قد جاء، وهكذا قد عاش، وهكذا عاد الآن. إنه نفسه مضمون بركات الله ومنجزها ومالكها وموزعها جميعاً (أف ١:٣).

وقد كان الصعود عمله الخاص أيضاً. فكان له الحق فيه والسلطان لفعله. إذ أنه صعد بقوته الخاصة. حتى إن صعوده هو انتصار بمعنى أقوى من قيامته. فبالصعود انتصر المسيح على الأرض كلها، وعلى جميع نواميس الطبيعة، وعلى جاذبية المادة. وفوق هذا، فإن صعود المسيح هو انتصار على جميع القوات الشيطانية والبشرية المعادية، إذ في صلب المسيح جرّدها الله من كل سلاحها، وفضح عجزها، وأوثقها بعربة نصر المسيح (كو ٢:١٥). وهذه القوات يجرها المسيح الآن كسبايا (أف ٤:٨). وهذا الأمر عينه يعبر عنه بطرس بطريقة أخرى. فهو يقول إن المسيح، بعد إحيائه بالروح، صعد إلى السماء (في ١بطرس ٣:١٩، ٢٢ تستعمل الكلمة اليونانية نفسها، لكنها تُترجم مرةً "ذهب" وأخرى "قد مضى"، وعليه فإن إضافة التعبير "إلى السماء" إنما يشير إلى أين ذهب المسيح). ويستفاد أن المسيح عند صعوده بشّر بانتصار الأرواح التي في السجن، ثم جلس في مكانه عن يمين الله، وقد أُخضعت له الملائكة وسلاطين وقوات.

والصعود الذي هو عمل المسيح الخاص، هو أيضاً إصعاد الله له إلى السماء. فلأن المسيح قد أكمل عمل الآب إلى التمام، لم يقف الآب عند حد إقامة الآب له بل استقبله أيضاً في حضرته بالذات. فالسماوات مفتوحة له والملائكة تخرج للقائه وتواكبه عند دخوله (أع ٧:١٠). بل إنه اجتاز السماء، إذ صعد فوق جميع السماوات (عب ٤:١٤ ؛ أف ٤:١٠) كي يجلس في مكانه عن يمين الآب في عرش جلالته. فالمقام الرئيس إلى جانب الله هو المسيح. وكما أن القيامة هي إعداد للصعود، فكذلك تماماً الصعود هو إعداد لإجلاس المسيح عن يمين الآب. وقد سبق العهد القديم فوعد المسيح بهذا المقام (مز ١١٠:١). وقال المسيح غير مرة إنه سوف يجلس على عرشه المجيد، وهو بعد صعوده احتل ذلك المجلس (مر ١٦:١٩). وفي الكرازة الرسولية غالباً ما يُذكر جلوس المسيح عن يمين الله كما يشدد على دلالته المهمة.

ومن الممكن أن نلاحظ اختلافاً معيناً في التعابير التي تستخدمها كلمة الله بالإشارة إلى هذه الخطوة المتعلقة بالارتفاع.فأحياناً يُقال أن المسيح " جلس" أو "قد جلس" (عب ١:٣ ؛١:٨)، ثم نقرأ أيضاً أن الآب قال له : اجلس عن يميني (أع ٢:٣٤ ؛ عب ١:١٣)، أو أن

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الآب "أجلسه" هناك (أف ١:٢٠). وأحياناً يقع التشديد على فعل الجلوس (مر ١٦:١٩)، وأحياناً على وضع الجلوس أو حالته (مت ٢٦:٦٤ ؛ كو ٣:١). كما يشار إلى المكان الذي جلس فيه المسيح بالقول : عن يمين قوة الله (لو ٢٢:٦٩) أو في يمين العظمة في الأعالي (عب ١:٣) أو في يمين عرش العظمة في السماوات (عب ٨:١) أو في يمين عرش الله (عب ١٢:٢). وفيما التعبير عموماً هو أن المسيح جالس هناك، نجد أحياناً ما يفيد أنه موجود هناك (رو ٨:٣٤) أو أنه "قائم" هناك (أع ٧:٥٥، ٥٦) أو أنه ماشٍ في وسط السبع المنابر الذهبية (رؤ ٢:١، ومواضع أخرى). ولكن الفكرة هي عينها دائماً : أن للمسيح، بعد قيامته وصعوده، المقام الأسمى قرب الله في الكون كله.

وهذه الفكرة مُعبرٌ عنها بصورة مجارية مستعارة من العلاقات الأرضية. فلا يمكن أن نتحدث عن الأمور السماوية إلا بطريق بشرية، من طريق المقارنة. فمثلما أكرم سليمان أمه بتشبع بوضع كرسي لها لتجلس عن يمينه، كذلك الآب أيضاً يمجد الابن بإجلاسه إياه معه في عرشه (رؤ ٣:٢١). ومعنى ذلك أن المسيح، على أساس طاعته الكاملة، قد رُفّع إلى أسمى سيادة وجلال وكرامة ومقام ومجد. فهو لم يتلقَّ من الآب قبل كون العالم (يو ١٧:٥)، بل كُلّل الآن أيضاً بالمجد والكرامة، بحسب طبيعته البشرية (عب ٢:٩ ؛ في ٢:٩ – ١١). وقد أُخضع له كل شيء، باستثناء الذي أخضع له الكل (١كو ١٥:٢٧). وإن كنا الآن لا نرى كل شيء مخضعاً له. فنحن نعلم أنه لابد أ يملك حتى يضع جميع أعدائه تحت قدميه (عب ٢:٨ ؛ ١كو ١٥:٢٥). ولسوف يحدث ذلك عند رجوعه، إذ يأتي ليدين الأحياء والأموات. ففي عودته للدينونة يكتمل الغرض من جلوسه عن يمين الله ومن كامل ارتفاعه الذي يبلغ ذروته إذ ذاك (مت ٢٥:٣١، ٣٢).

****

ثم إن المسيح، وهو في حالة الارتفاع هذه، يتابع العمل الذي بدأه على الأرض. حقاً أن بين العمل الذي أنجزه في اتضاعه والعمل الذي يتمه في ارتفاعه فرقاً كبيراً. فكما أن شخصه يظهر في هيئة أخرى، هكذا يتخذ عمله أيضاً شكلاً مختلفاً وصورة أخرى. فبعد قيامته لم يعد عبداً في ما بعد، بل هو ربٌّ ورئيس؛ كذلك لم يعد عمله في ما بعد ذبيحة وطاعة كالتي أتي بها على النحو الأكمل في موته على الصليب. ولكن عمله الشفاعي يستمر مع ذلك بشكل آخر. فهو عند صعوده يدخل راحة لا عمل فيها – إذ إن الابن يعمل دائماً كما يعمل الآب (يو ٥:١٧) – لكنه بدلاً من ذلك يجري لكنيسته فوائد خلاصه الكامل الذي أنجزه. وكما أن المسيح، من طريق آلامه وموته، قد رُفّع بالقيامة والصعود رأساً للكنيسة، كذلك أيضاً الكنيسة ينبغي الآن أن تكون على صورة جسد المسيح وتُكمّل إلى ملء الله. فإن عمل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الوسيط هو عمل إلهي عظيم وجليل، بدأ في الأزل ويدوم إلى الأبد. ولكن هذا العمل، في لحظة القيامة، قُسم إلى جزئين. فقبله كان اتضاع المسيح جارياً، وبعده ابتدأ ارتفاعه. وكلا الأمرين لابد منها في عمل الخلاص.

وبمقتضى ذلك، ظل المسيح ناشطاً في حالة ارتفاعه بوصفه نبياً وكاهناً وملكاً. وهو منذ الأزل مُسح بهذه الصفات. وقد مارس مهام هذه الوظائف الثلاث في حالة الاتضاع. وهو الآن يتابع ممارستها في السماء، ولو بطريقة مختلفة.

أما أنه ظلّ ناشطاً بعد القيامة كنبيّ، فأمر يتضح من تعليمه. فقد بقي يعلّم تلاميذه حتى وقت صعوده. والأربعون يوماً التي قضاها المسيح على الأرض بعد قيامته، تشكل جزءاً مهماً من حياته وتعليمه، وإن كنا لا نهتم عادةً بهذه الحقيقة اهتماماً كافياً. ولكن ما إن نتأمل بانتباه ما قاله الرب يسوع وعمله خلال هذه الأربعين يوماً، حتى يتكشف لنا أن هذا الأمر يُلقي على شخصه وعمله ضوءاً جديداً تماماً. وبطبيعة الحال، لا نمتلك نحن إحساساً مرهفاً وعميقاً كالذي كان لدى الرسل، فنحن نعيش بعدهم ونستفيد من تعليمهم، غير أنهم – وقد رافقوا المسيح ثم فقدوا كل رجاء عند موته – صاروا أشخاصاً مختلفين جداً في تلك الأربعين يوماً، وتعلموا أن يفهموا شخص المسيح وعمله على نحوٍ لم يكن ممكناً لهم من قبل.

إنّ القيامة بذاتها تُلقي ضوءاً باهراً على موت المسيح وعلى حياته الأولى بكاملها. غير أن هذه الحادثة المرتبطة بالفداء، لم تبقَ أيضاً أمراً مستقلاً بذاته : فكما سبقتها لحقتها أيضاً كلمة تتعلق بالفداء. فقد أعلن الملائكة حالاً عند القبر للنسوة اللواتي كنّ يبحثنّ عن يسوع، إنه ليس هناك "كما قال" (مت ٢٨:٥، ٦). والمسيح نفسه شرح لتلميذي عمواس أنه كان ينبغي أن يتألم المسيح ثم يدخل إلى مجده، وقد بيّن لهم ذلك من كل ما جاء في جميع الكتب من صورٍ مختصة به (لو ٢٤:٢٦، ٢٧ ؛ قارن ٤٤ – ٤٧).

آنذاك تعلم التلاميذ أن يعرفوا المسيح بصورة أخرى تختلف عن تلك التي بها جال معهم فيما مضى. فهو ليس بعد ابن الإنسان المتواضع الذي جاء لا ليُخدم بل ليخدم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين. ها هو قد وضع جانباً صورة العبد، وأعلن نفسه في صورة المجد. وهو الآن ينتمي إلى عالم أخر. فهو عائدٌ إلى أبيه، فيما يبقى التلاميذ لأن لهم الأرض رسالة يتمّمونها. أما علاقة الشركة الخاصة بينه وبين تلاميذه فلم تعد إلى سابق عهدها. حقاً أنه ستقوم فيما بعد بين يسوع وتلاميذه علاقة أخرى مختلفة، بل أيضاً أوثق، بحيث يعلمون عندئذ أن انطلاقه كان خيراً لهم. ولكن تلك العلاقة ستكون شركة في الروح، تختلف كثيراً عن تلك التي تمتعوا بها من قبل. والآن بعد القيامة أعلن المسيح نفسه لتلاميذه في مجد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وحكمة فائقين حتى إن توما اعترف به الاعتراف الذي لم يسبق أن صرّح به أي أحد منهم، إذ قال أن يسوع هو ربّه وإلهه (يو ٢٠:٢٨).

لقد ألقى المسيح، خلال الأربعين يوماً، ضوءاً متزايداً على شخصه وعمله. لكنه أيضاً قدم تفسيرات أكثر تحديداً لما ينبغي أن تكون الآن دعوة التلاميذ ومهمتهم. فلما دُفن المسيح وبدا أن كل شيء قد انقضى ومضى، ربما تكونت لدى التلاميذ سراً خطة العودة إلى الجليل واستئناف العمل السابق. غير أنهم في اليوم الثالث سمعوا بظهورات حدثت، لمريم المجدلية ومريم الأخرى (مت ٢٨:١، ٩ ؛ يو ٢٠:١٤ وما يلي) ولبطرس (لو ٢٤:٣٤ ؛ ١كو ١٥:٥) ولتلميذي عمواس (لو ٢٤:١٣ وما يلي)، ومن ثم مكثوا قليلاً في أورشليم. في مساء ذلك اليوم بعينه، أُكرم التلاميذ – ما عدا توما – بظهور الرب لهم. بعد ثمانية أيام تمتعوا بظهور آخر، وتوما معهم هذه المرة. ثم تبعوا المسيح، وقد سبقهم هو، إلى الجليل (مت ٢٨:١٠). وعندئذ حدثت عدة ظهورات أخرى (لو ٢٤:٢٤ وما يلي؛ يو ٢١). وفي الوقت نفسه وجههم بأن يرجعوا إلى أورشليم ليكونوا شهوداً لصعوده.

وفي كل من هذه الظهورات، فسر المسيح لتلاميذ ما ستكون عليه دعوتهم الآتية. فلم يكن لهم أن يرجعوا إلى عملهم السابق، بل كان عليهم أن يكرزوا، كشهود له، بالتوبة ومغفرة الخطايا ابتداءً من أورشليم. وقد تلقى الرسل وصايا من كل نوع (أع ١:٢). وعلمهم المسيح ما يتعلق بملكوت الله (أع ١:٣). وحدد لهم سلطانهم (يو ٢٠:٢١ – ٢٣ ؛ ٢١:١٥ – ١٧)، ووضع في قلوبهم واجب الكرازة بالإنجيل للخليقة كلها. آنذاك عرفوا ما كان عليهم أن يعملوه. فكان عليهم في تلك الأثناء أن يقيموا في أورشليم إلى أن يمنطقوا بالقوة من الأعالي (لو ٢٤:٤٩ ؛ ١:٤، ٥، ٨)، ومن ثم يكونون له شهوداً في أورشليم واليهودية والسامرة، وإلى أقصى الأرض (أع ١:٨).

ومضمون تعليم المسيح بكامله خلال الأربعين يوماً معبرٌ عنه باختصار في الكلمات الأخيرة التي تكلم بها إلى تلاميذه (مت ٢٨:١٨ – ٢٠)، حيث يقول أولاً أنه قد دُفع إليه كل سلطان في السماء والأرض. صحيح أنه صرّح سابقاً بحيازته ذلك السلطان (مت ١١:٢٧)، لكنه الآن يمتلكه على أساس استحقاقه الشخصي، ويمضي قُدماً فيستخدمه بغرض إغداق البركات التي حصلّها على الكنيسة التي افتداها بدمه. فباسم كمال سلطانه هذا – إذا جاز التعبير – يُعطي تلاميذه التفويض بأن يتلمذوا له جميع الأمم معمدّين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس، وأن يعلّموهم بأن يحفظوا جميع ما أوصاهم به. ولأنه قد دُفع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فمن حقه أن يطالب بتلمذة جميع الأمم. وجميع الذين يدخلون بالمعمودية إلى الشركة مع الله الذي عرّفه نفسه في إعلانه الكامل بكونه الآب والابن والروح القدس، ويسلكون الآن في وصاياه دائماً، جميع هؤلاء يعترف المسيح بهم تلاميذ له، وعلى سبيل التشجيع يُضيف المسيح أخيراً أنه سيكون معهم كل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

الأيام، إلى انقضاء الدهر. فهو بالجسد مزمع أن يبرح عنهم، ولكن بالروح يبقى معهم، حتى إنه هو – وليس هم – من يجمع كنيسته ويحكمها ويحميها.

كذلك يبقى المسيح، بعد صعوده، ناشطاً كنبي أيضاً. فإن كرازة الرسل، سواء مشافهة أو كتابة في رسائلهم، ترتبط بتعليم المسيح مباشرةً، ليس فقط بما تلقوه منه خلال الأربعين يوماً في قيامته وصعوده.

وهذه الحقيقة المشار إليها أخيراً، جدير بنا ألا نغفل عنها. فهي وحدها ما يفسر لنا سبب ثبوت الرسل من أول الأمر على القناعة الراسخة بأن المسيح لم يمت فقط بل أُقيم أيضاً وأُجلس عن يمين الله ربّاً ومسيحاً، ورئيساً ومخلصاً، وبأن خلاص الخاطي الكامل متضمن في محبة الآب ونعمة الابن وشركة الروح القدس.

ثم إن كرازة الرسل لا ترتبط فقط بتعليم المسيح ارتباطاً وثيقاً، بل هي أيضاً تفسير ذلك التعليم وبسطه. فقد واصل المسيح نفسه، بروحه، عمل النبوة في قلوب تلاميذه. وبروح الحق أرشدهم إلى جميع الحق، لأن ذلك الروح لم يشهد لنفسه، بل شهد للمسيح، وجعل التلاميذ يتذكرون ويتأملون ما سبق أن قاله لهم، وكشف لهم أُموراً آتية (يو ١٤:٢٦ ؛ ١٥:٢٦ ؛ ١٦:١٣). وهكذا أُعد الرسل للإتيان بكلمة العهد الجديد المقدسة التي وُضعت إلى جانب أسفار العهد القديم فكانت سراجاً يضيء سبيل الكنيسة ونوراً يُهدي خُطاها. فالمسيح نفسه هو من أعطى كنيسته هذه الكلمة، وهو الذي يواصل تأدية وظيفته خلال هذه الكلمة باطّراد. إنه يحفظها ويجريها، ويفسرها ويشرحها. والكلمة هي الوسيلة التي بها يُتلمذ المسيح الأمم، ويأتي بهم جميعاً إلى الشركة مع الله المثلث الأقانيم، ويجعلهم يسلكون وصاياه. وما يزال المسيح بكلمته وروحه، معنا الآن كل الأيام إلى انقضاء الدهر.

****

وما ينطبق بالنسبة إلى وظيفة المسيح النبوية، يصدق أيضاً على وظيفته الكهنوتية. فليست هذه وظيفة تولاها زمناً وحسب. بل إنه يضطلع بها إلى الأبد. وقد كان في فرز بيت هارون وسبط لاوي لخدمة الهيكل، في العهد القديم، رمزٌ سابق إلى طبيعة الكهنوت الأبدية هذه. ففي حين أن جميع الأفراد الذين مارسوا هذه الخدمة ماتوا حقاً، كلٌّ في دوره، كان آخرون يخلفونهم حالاً. أما الكهنوت فظل باقياً ومستمراً. على أن المسيّا الآتي لم يكن مقدراً له أن يكون مجرد كاهن عادي يخدم مدة ثم يخلفه آخر، بل بالأحرى كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق (مز ١١٠:٤). فعلى خلاف سلالة هارون ولاوي الذين منعهم الموت عن البقاء كهنة كل حين (عب ٧:٢٣)، يُعطينا ملكي صادق بشخصيته العجيبة صورةً لاستمرار رئاسة كهنوت المسيح إلى ما لا نهاية. ذلك أن ملكي صادق كان ملك بر وسلام معاً في آنٍ واحد، وهو فريد في تاريخ الإعلان كلّه، إذ لا يذكر الكتاب شيئاً عن نسبه أو

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مولده أو موته. وهكذا كان بمعنى رمزي مشبّهاً بابن الله إذ يبقى كاهناً إلى الأبد (عب ٣:٧).

ولكن ما كان عليه ملكي صادق بصورة رمزية فقط، فالمسيح هو عليه فعلاً وحقاً. ففي وسع المسيح أن يكون رئيس كهنة أبدياً بكل معنى الكلمة تماماً، لأنه ابن الله الكائن أزلاً (عب ١:٢، ٣). إنه قدّم نفسه قرباناً على الأرض وفي ملء الزمان، غير أنه جاء من فوق، وهو في جوهره ينتمي إلى الأزل والأبد؛ لذا استطاع أيضاً أن يقدم نفسه في الزمان بالروح القدس الأزلي (عب ٩:١٤). وعلى قدر ما كان المسيح – من حيث كونه ابن الله – مستعداً منذ الأزل لأن يجيء إلى العالم ويفعل مشيئة الله بالتمام(عب ١٠:٥ – ٩)، كان أيضاً كاهناً منذ الأزل. إنما بالنظر إلى إتمام مشيئة الله في أيام جسده، يمكننا القول أن كهنوته ابتدأ على الأرض فعلاً. وهكذا كان كهنوت المسيح هذا على الأرض، بقيامته وصعوده، سبيلاً لأن يغدو رئيس كهنة في المملكة السماوية ويظل كذلك إلى الأبد. وما يسترعي الألتفات في الرسالة إلى العبرانيين أنه يجب ألا تعتبر حياة المسيح وعمله على الأرض خاتمةً للمطاف بل ينبغي اعتبارهما تمهيداً لخدمته الكهنوتية الأبدية في السماء.

وقد استنتج بعضهم من هذا أن المسيح، بحسب الرسالة إلى العبرانيين، لم يكن كاهناً بأية حال لما كان على الأرض، وأنه تولى هذا المنصب أول مرة لما صعد إلى السماء ودخل قدس الأقداس. وهؤلاء يؤسسون فكرتهم هذه على حقيقة كون الكهنة على الأرض هم من سبط لاوي، وكان لابدّ أن يكونوا هكذا ليُسمح لهم بأن يقدّموا القرابين بموجب الشريعة، وعلى كون المسيح قد طلع من سبط يهوذا لا من سبط لاوي ولذا لم يقدم قط أي قربان في الهيكل بأورشليم (عب ٧:١٤ ؛ ٨:٤). فإذا كان المسيح مع ذلك كاهناً، فلا يقدر أن يكون كذلك إلا في السماء، ويلزم أن يكون له ما يقدّمه (عب ٨:٣). وهكذا استنتجوا أن ما قدّمه هنالك كان هو دمه الخاص الذي دخل به الأقداس السماوية (عب ٩:١٢،١١).

بيد أن هذا الاستنتاج غير دقيق يقيناً، فإن هذه الرسالة إلى العبرانيين – شأنه شأن سائر كتابات الرسل جميعاً – تشدد أقوى التشديد على حقيقة أنّ المسيح قد قدم نفسه مرةً واحدة فقط، أي على الصليب، فحصل لنا فداءً أبدياً. فإن غفران الخطايا – هذه البركة العظيمة بين بركات العهد الجديد ونعمه – قد أُحرز كلياً بفضل ذلك القربان الواحد، أن العهد الجديد المؤسس بدم المسيح قد وضع حداً للقديم. كذلك كسرت ذبيحة المسيح الواحدة شوكة الخطية والموت وإبليس، وقدّس المسيح بدمه وأكمل جميع الذين كانوا مطيعين له (عب ١٠:١٠، ١٤ ؛ ١٣:١٢). وبالتحديد، فلأن المسيح قدّم هذه الذبيحة الواحة على الصليب، صار من حقه أن يجلس في يمين عرش الله العظيم رئيس كهنة أبدياً (عب ٨:١). وهو لن يتألم ويموت بعد، بل يجلس على العرش ظافراً. والأمر المهم في محاجة الرسول هو بالتحديد

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

أن لنا رئيس كهنة مثل هذا قد جلس في يمين عرش العظمة في السماوات (عب ١:٨). ولا إمكانية البتة الآن في السماء بتقديم أي قربان كذلك الذي قدّمه المسيح على الأرض.

ومع ذلك فالمسيح هو رئيس الكهنة في السماء، ويبقى كذلك. فبهذه الصفة أُجلس عن يمين الله. نعم، يمكن أن يقال، بمعنىً من المعاني، مع الرسالة إلى العبرانيين، إنه في السماء صار أولاً رئيساً للكهنة على رتبة ملكي صادق وتولى أولاً مباشرة كهنوته الأبدي. وقد كانت حياته كلها على الأرض تمهيداً وإعداداً ليقوم الآن في السماء بدور رئيس الكهنة الأبدي لأجل خيرنا. فقد كان هو الابن، وكان ينبغي أن يكون هكذا لكي يتمكن من أن يصير هو كاهننا الأعلى العظيم، غير أن هذا لم يكن يكفي. ذلك لأنه، مع كونه ابناً، كان لازماً أن يتعلم الطاعة مما تألم به (عب ٥:٨). والطاعة التي له لكونه ابناً (عب ٥:١٠ – ٧) كان ينبغي أن يبديها، بصفته كائناً بشرياً، في آلامه، ليصير بالتالي رئيس الكهنة الذي لنا. فجميع الآلام التي جاءت على المسيح، والتجارب التي تعرض لها، والموت الذي خضع له، هذه كلها كانت في يد الله بمثابة الوسيلة لتقديس المسيح وتكميله لأجل الخدمة الكهنوتية التي ينبغي الآن أن يقوم بها أمام وجه الله. طبعاً، لا يجوز أن نفهم تقديس المسيح وتكميله هذين بمعنىً أدبي، كما لو كان المسيح قد صار طائعاً بالتدريج من خلال الجهاد. إنما يفكر الرسول، بالأحرى، بوصفه ابناً، على طاعته في مواجهة كل تجربة، وبذلك يتأهل كلياً ليكون رئيس كهنة إلى الأبد.

فمن طريق الطاعة إذاً أحرز المسيح بكل جدارة منصبه هذا كرئيس كهنة عن يمين الله في عرش العظمة. فعلى أساس آلامه وموته، أي على أساس ذبيحته الواحدة الكاملة، هو الآن جالس عن يمين الجلالة في أعلى السماوات. إذ أنه بدم نفسه (والباء هنا لا تفيد المصاحبة بل السببية) دخل مرةً واحدة إلى الأقداس السماوية (عب ١٢:٩) وهو الآن هناك، في المسكن الحقيقي الذي بناه الله نفسه. وهناك يقوم الآن بعمله خادماً للأقداس (عب ٢:٨). فالآن هو، أول مرة، كاهن على رتيبة ملكي صادق، بكل معنى العبارة، وإلى الأبد (عب ١٠:٥ ؛ ٢٠:٦). وكما كان رئيس الكهنة في العهد القديم يدخل قُدس الأقداس مرةً واحدة في السنة، وذلك في يوم الكفّارة العظيم، بدم التيس المذبوح لأجل نفسه، وبدم التيس المذبوح لأجل الشعب، بغيّة أن يرش الدم على كرسي الرحمة (غطاء التابوت) وحواليه، كذلك تماماً شق المسيح، بفضل دم ذبيحته على الصليب، الطريق إلى الأقداس الحقيقية في السماء (عب ١٢:٩). فهو لم يأخذ معه في السماء الدم الذي سفكه فوق الجلجثة، بالمعنى الحرفي، ولا قدّمه ورشه هناك، بالمعنى الواقعي، بل إنه بدمه الخاص دخل المسكن الحقيقي. إذ عاد إلى السماء آنذاك بوصفه مسيحاً قد مات وأُقيم، فهو كان ميتاً أما الآن حيّ إلى أبد الآبدين (رؤ ١٨:١). وهو القائم في وسط العرش كالخروف الذي كان مذبوحاً (رؤ ٦:٥). إنه، في شخصه، واسطة الكفّارة : فهو كفّارة لخطايانا وللعالم أجمع (١يو ٢:٢).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

وعليه، فإن خدمة المسيح في السماء بوصفه رئيس الكهنة تكمن في ظهوره، أمام وجه الله لأجلنا (عب ٩:٢٤). وبقيامه هناك بكل ما ينبغي القيام به أمام الله لأجل التكفير عن خطايا شعبه، يتبرهن أنه رئيس كهنة رحيم وأمين (عب ٢:١٧). وهو يهب كي يعين المجرّبين (عب ٢:١٨ ؛ ٤:١٥)، ويأتي إلى المجد بأبناء كثيرين (٢:١٠). وفي طريق الطاعة صار هو نفسه رئيساً لجميع الذين يتقدمون إلى الله بوساطته. وهو رائدهم وقائدهم في الإيمان، ولذلك يقدر أن يأتي بالآخرين إلى الإيمان ويحفظهم فيه إلى النهاية (عب ١٢:٢). كما أنه أيضاً رئيس الحياة (أع ٣:١٥) بالنسبة إلى المؤمنين به، لأنه كسب تلك الحياة أولاً بموته، ولذلك يقدر الآن أن يعطيها إلى الآخرين. كذلك هو رئيس الخلاص (عب ٢:١٠) لأنه نفسه قد شق الطريق إلى الخلاص وسار فيها، ولذلك يقدر أن يقود الآخرين إليها ويدخل بهم إلى الأقداس (عب ١٠:٢٠).

فالمسيح إذاً هو، دائماً وفي كل شيء،شفيعنا عند الآب. ومثلما صلّى لأجل تلاميذه لما كان على الأرض (لو ٢٣:٣٤)، وسلّم الكنيسة كلّها للآب في صلاته كرئيس كهنة (يو ١٧)، فكذلك أيضاً يواصل في السماء تشفعه لأجل خاصته. صحيح أنه ينبغي أن نفهم هذا بمعنى أنه ينطرح أمام الآب متضرعاً إليه ومناشداً إياه أن يبدي الرحمة. لأن الآب نفسه يحبنا وقد بذل ابنه بيّنة على محبته. ولكن شفاعة المسيح تعني ضمناً أن محبة الآب لا تمنح لنا البتة إلا في الابن الذي أطاع حتى الموت موت الصليب. فليس تشفع المسيح إذاً توسلاً لأجل النعمة، بل هو التعبير عن إرادة قاعة (يو ١٧:٢٤)، إذ هي سؤال الابن أيعطيه الآب الأمم ميراثاً وأقاصي الأرض ملكاً له (مز ٢:٨). فأمامنا هنا المسيح المصلوب والممجد، ابن الآب الوحيد الحبيب، ذاك الذي أطاع ولكنه أيضاً رُفّع إلى عرش الظلمة. ههنا رئيس الكهنة الرحيم والأمين الذي قدّس وكمل خدمته في السماء، والذي بشفاعته تُقدم إلينا رحمة الآب.

فإزاء جميع التهم التي يوجهها إلينا الناموس والشيطان وقلوبنا، سيتولى المسيح بنفسه مهمة الدفاع عنا (عب ٧:٢٥ ؛ ١يو ٢:٢). وهو يأتي إلى معونتنا في جميع تجاربنا، ويرثي لضعفاتنا. وينقي ضمائرنا. إنه يقدس ويُخلص إلى التمام جميع الذين يتقدمون به إلى الله، ويعدّ لهم مكاناً في بيت الآب، المنازل كثيرة والمجال متسع للعديدين (يو ١٤:٢، ٣)، ويحفظ لهم ميراثهم السماوي(١بط ١:٤). وإذاً، فلا شيء يخشاه المؤمنون. فمن حقهم أن يتقدموا بثقة إلى عرش النعمة (عب ٤:١٦ ؛ ١٠:٢٢) وقد نالوا أيضاً من عند المسيح في السماء روح التبني الذي به يصرخون "أباً، أيها الآب" وبه قد انسكبت محبة الله في قلوبهم (رو ٥:٥ ؛ ٨:١٥). وكما أن المسيح هو شفيعهم عند الآب في قلوبهم. ومن المعتقدات الأساسية المهمة في إيماننا المسيحي إذاً إن لنا رئيس كهنة جالساً عن يمين عرش الجلالة

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

في السماوات (عب ٨:١). من هنا لا نحتاج بعد إلى كاهن ولا ذبيحة، ولا مذبح ولا هيكل، هنا على هذه الأرض.

****

ثم إن المسيح يواصل أيضاً ممارسة وظيفته الملكية في السماء بعد قيامته. وبخصوص هذه الحقيقة، يقلّ الاختلاف في الآراء طبعاً، لسبب أن المسيح بقيامته وصعوده قد رفّعه الآب ربّاً ومسيحاً، ورئيساً (قائداً) ومخلصاً، وأجلسه في يمين عرش العظمة، وأعطاه اسماً يفوق كلّ اسم. فإن كون المسيح ملكاً واضحاً بكل جلاء في ارتفاعه أكثر مما هو في اتضاعه.

وتضع الكلمة المقدسة حداً ضمن ملكوت المسيح هذا الواحد. فهنالك ملك المسيح على صهيون، إي على شعبه، وعلى الكنيسة؛ وهنالك أيضاً مُلكه الذي يمارسه على أعدائه. أما الأول فملك النعمة؛ وأما الثاني فملك قوة وسلطان.

وفيما يتعلق بالكنيسة، غالباً ما يستخدم العهد الجديد لفظة "الرأس" بالتبادل مع " الملك ". فإن للمسيح بالكنيسة التي اقتناها بدمه علاقة حيوية وثيقة جداً بحيث لا يكفي اسم واحد للتعبير عن مضمونها. وهكذا يقدم الكتاب المقدس صور بيانية عديدة لإيضاح شيء ما عما يعنيه المسيح لكنيسته. فهو منها ما هو العريس من عروسه (يو ٢٩:٣ ؛ رؤ٢:٢١)، والرجل من امرأته (أف ٢٥:٥ ؛ رؤ ٩:٢١)، والبكر من أخوته (رو ٢٩:٨ ؛ عب١١:٢)، وحجر الزاوية من البناء (مت ٢٤:٢١ ؛ أع ١١:٤ ؛ ١بط ٤:٢-٨)، والكرمة من الأغصان (يو ١:١٥ ؛٢)، والرأس من الجسد. نعم، إن المسيح بالنسبة إلى الكنيسة هو ذلك كله وفوق ذلك.

و الصورة البيانية الأخيرة، على الخصوص، ترد في الكتاب مراراً وتكراراً. ويقول الرب يسوع نفسه في متى ٤٢:٢١ إن التصريح الذي جاء في المزمور ٢٢:١١٨ قد تحقق فيه هو : الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية. وكما يعمل حجر الزاوية على ربط جدران البناء بعضها ببعض وعلى توطيدها، كذلك المسيح أيضاً، ولو رفضه اليهود، قد اختاره الله ليؤدي دور حجر الزاوية لكي تتحقق فيه الثيوقراطية، أي مُلك الله على شعبه. ويذكر الرسول بطرس هذه الفكرة في أعمال الرسل ١١:٤، كما يتوقف عندها في رسالته الأولى بأكثر تحديد، حيث لا يردها فقط إلى المزمور ٢٢:١١٨، بل أيضاً إلى أشعياء ١٦:٢٨. فهو يصف المسيح بأنه الحجر الحي الذي وضعه الله في صهيون ولذي إليه أُضيف المؤمنون كحجارة حية (١ بط ٤:٢-٦). ويأتي بولس بوصف مكمل لهذه الصورة إذ يشير إلى أن الكنيسة قد بنيت على الأساس الذي أرساه الرسل والأنبياء في كرازتهم بالإنجيل، وأنّ المسيح نفسه هو حجر الزاوية في بناء الكنيسة المرفوعة على ذلك الأساس (أف ٢٠:٢). وفي موضع آخر يُدعى المسيح نفسه أساس الكنيسة (١كو١٠:٣).

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

لكنه هنا، في أفسس ٢:٢٠، يدعى حجر الزاوية. مثلما يكمن مبدأ الثبات في حجر زاوية البناء، هكذا تماماً لا وجود للكنيسة إلا في المسيح الحي وحده.

ولكنّ استعارة البناء، رغم أنها تصور المسيح بوصفه حجر الزاوية، لا تكفي وحدها للتعبير عن العلاقة الوثيقة بين المسيح وكنيسته. فالعلاقة بين حجر الزاوية والبناء هي علاقة اصطناعية رغم كل شيء، أما وحدة المسيح وكنيسته فهي رباط وحدة حي. وتبعاً لذلك تكلم المسيح لا كمجرد حجر جعله الله رأس الزاوية، بل أيضاً كالكرمة التي تفرخ الأغصان وتغذيها بعصارتها (يو ١٥:١ ؛ ٢). وفيما عزز بطرس الاستعارة بوصفه الحجارة بأنها حية، لم يقف بولس عند ذكر بناء ينمو وجسد يبنى (أف ٢:٢١ ؛ ٤:١٢)، بل يصور المسيح أيضاً، ومرة تلو المرة، بوصفه رأس الكنيسة (جسده).

فإنّ كل كنيسة محليّة هي جسد للمسيح أعضاؤها مترابطون كأعضاء الجسد الواحد، يحتاج بعضهم إلى بعض ويخدم أحدهم الآخر (رو ١٢:٤، ٥ ؛ ١كو ١٢:١٢-٢٧). ولكن كنيسة المسيح ككل هي جسد المسيح أيضاً.وهو بفضل قيامته وصعوده قد جُعل رأس لها. وبهذه الصفة هو مصدر حياة الكنيسة. فهو يمنح الكنيسة حياتها في البداية، لكنه أيضاً يطعمها ويعتني بها ويحفظها ويحميها. وهو يجعل الكنيسة تنمو وتزدهر، ويجعل كل عضو من أعضائها يبلغ نضجه الكامل، وهو أيضاً يوحد الأعضاء جميعاً ويجعل كلاً منهم يعمل لخير الآخر. وبكلمة، إنه يملؤها إلى كل ملء الله.

عاش في أيام الرسول بولس معلمو بدع زعموا من أعماق الكينونة الإلهية تنبثق كل أنواع الكائنات الروحية في سلسلة انحدارية، وإنّ هذه كلها تكون معاً ملئه أو قامته المكتملة. ففي مواجهة هذا الزعم يقدم بولس حقيقة أنّ ملء الله كله يحل في المسيح وحده وأنّه يحل فيه جسدياً، وأنّ المسيح يجعل هذا الملء بدوره يحل في كنيسته التي هي جسده وملؤه (أي الجسد مملوء إلى التمام بالمسيح) - ملء ذاك الذي يملأ الكل في الكل (أف ١:٢٣). فلولا المسيح الذي منه كل شيء لما كان في الكنيسة شيء – لا موهبة ولا قوة ولا وظيفة ولا خدمة ولا إيمان ولا رجاء ولا محبة ولا خلاص. ولسوف يستمر المسيح في عمل الملء هذا إلى أن تمتلىء الكنيسة بجملتها وأجزائها بملء الله. عندئذ تكون الكنيسة قد اكتملت ويكون الله هو الكل في الكل (١كو ١٥:٢٨).

غير أن المسيح يدعى أيضاً "الرأس" بمعنىً آخر. ففي ١كورنثوس ١١:٣ يقول إن المسيح هو رأس كل رجل. وفي ٢تسالونيكي ٢:١٠ يدهوه رأس كل رياسة وسلطان، أي الملائكة جميعاً، لأنه هو البكر على كلّ خليقة (كو ١:١٥). وفي أفسس ١:١٠ يذكر أنّ قصد الله من جهة تدبير ملء الأزمنة هو أن يجمع كل شيء في المسيح (الكلمة اليونانية تفيد معنى اختصار جميع الأشياء وحصرها تحت رأس واحد) ما في السماوات وما على الأرض.

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

فواضح على كل حال أنّ اسم "الرأس" له في سياق هذه الآيّات معنىً يختلف عن مدلوله حيث يدعى المسيح رأس الكنيسة. ففي الحالة الأخيرة هنا يفكر بولس على الخصوص بالعلاقة العضوية – إي مبدأ الحياة الموّحد – بين المسيح والكنيسة. ولكن حيث يدعى المسيح رأس الرجل، أو الملائكة أو العالم، فالتشديد يكون على صورة الملك السيّد. فالخلائق كلها بغير استثناء خاضعة للمسيح، كما أنّ المسيح نفسه بوصفه وسيطاً هو خاضع للآب (١كو ١١:١٣). وبينما يمارس سيادة النعمة على الكنيسة، ولذلك يُدعى غالباً رأس الكنيسة، فإنه يتقلد سيادة السلطة على الخلائق كلها. وفي هذه العلاقة نادراً ما يُدعى رأساً، وغالباً ما يُدعى ملكاً وربّاً. فهو ملك الملوك وربّ الأرباب، وبوصفه ملكاً سوف يملك حتى توضع جميع أعدائه تحت قدميه.

وينبغي عدم توحيد ملكوت السلطة هذا بالسيادة المطلقة التي يملكها المسيح، من حيث طبيعته اللاهوتية، مع الآب والروح على السواء. فمن الواجب أن نميز بين صفة القدرة على كل شيء التي هي بيد الابن منذ الأزل والسلطان الذي يذكره المسيح في مت ٢٨:١٨ والذي يُدفع إليه خصيصاً باعتباره وسيطاً في كلتا طبيعتيه. فباعتبار المسيح وسيطاً، له أن يجمع كنيسته ويحكمه ويحميها، ولكي يقوم بذلك ينبغي قبلاً أن يكون أقوى من جميع أعدائه وأعداء الكنيسة. ولكن ذلك بالطبع ليس هو السبب الوحيد الذي لأجله دُفعت إلى يد المسيح سلطة الملك المطلقة. فثمّة أيضاً سبب آخر لذلك، وهو أنه للمسيح، بوصفه وسيطاً، من أن ينتصر حتماً على جميع أعدائه. وهو لا يواجههم في المعركة بقدرته الإلهية الكلية، بل يبدي لهم السلطان القاهر في كسبه بآلامه وموته. والنزاع بين الله وخليقته نزاع عدلً وحق. فكما أن الكنيسة أُفتديت في طريق العدل، فأعداء المسيح كذلك لابدّ أن يُدانوا يوماً في طريق العدل. وفي مواجهتهم، لن يستعمل الله قدرته على كل شيء، الأمر الذي يستطيع يقيناً أن يفعله، ولكنه سيظفر بهم في صليب المسيح (كو ٢:١٥). ولو شاء الله أن يطارد أعداءه بقدرته الكلية، لما استطاع الوجود لحظة. غير أنه يسمح لهم بأن يولدوا ويعيشوا، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. وهو يُغدق عليهم خيراته، ويهبهم جميع الهبات التي يملكونها في الروح والجسد، ولكنهم هم يسيئون استعمالها بتوظيفها ضدّه تعالى. لكنا في وسع الله أن يفعل هذا، وهو حقاً يفعله، لأن المسيح هو الوسيط. ومع أن الآن ليس كل شيء مُخضعاً له بعد، فهو مع ذلك مكلل بالمجد والكرامة، ولسوف يسود ملكاً حتى تُخضع له جميع أعدائه قهراً. وأخيراً، في آخر الدهر، عندما ينتهي تاريخ العالم كله، وتاريخ كل إنسان فرد أيضاً، لابدّ أن يُقرّ كلّ امرئٍ، في ضميره الخاص، بسيادة المسيح، إذ يرى الجميع كل ما أسبغه الله من عطايا روحية ومادية لأجل خاطر الوسيط الوحيد. فطوعاً أو كرهاً، سوف تنحني له يوماً كلّ ركبة، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربّ، لمجد الله الآب (في ٢:١٠، ١١). ويوماً ما، لابدّ أن ينطق المسيح بالحكم النهائي على كلّ

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com

مخلوق بشريّ. وهو لن يدين أحداً غير الذين قد دينوا قبلاً في ضمائرهم بتبكيتٍ من الروح القدس (يو ٣:١٨ ؛ ١٦:٨ – ١١).

الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس.
لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملأ حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل

P.O. Box 486, Dracut, MA 01826 – USA All rights reserved © 2008-2018 info@arabicbible.com